جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

مذكرة ماستر

الميدان: لغة وأدب عربي

الفرع: دراسات أدبية

تخصص: أدب عربي قديم

رقم تسلسل المذكرة:ق/15

إعداد الطالبة:

جمني نفيسة

يوم: 2021/06/27

الفضاء الجغرافي في شعر لبيد بن ربيعة "المعلقة أنموذجا"

لجنة المناقشة

محمد بركات	أ.مس	بسكرة	رئيسا
صالح مفقودة	أ.مح.أ	بسكرة	مشرفا
سعاد طويل	أستاذ	بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية: 2020– 2021م.

شكر وتقدير

الحمد لله الذي أنار لنا طريق العلم لنصل إلى هذه المرحلة
وأمدنا بالقوة والإرادة وسهل لنا ما هو صعب لتتم هذه
الرسالة.
أتوجه بجزيل الشكر والعرفان إلى من كان قدوتنا وسبب
وجهتنا

إلى كل من دفعنا إلى طلب العلم وأداء العمل بكل أمان
وإتقان إلى من لا يبخل علنا بمعرفته
إلى الأستاذ الفاضل "مفقودة صالح" إلى الذين حملوا أقدس
رسالة في الحياة إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة
إلى جميع من ساهم في دعمنا وإرشادنا ونصحنا من قريب أو
من بعيد في إنجاز هذه المذكرة

جهني نفيسة

الإهداء

إلى من يتمنى لي السعادة وقلبه يهتف بالدعاء

إلى من تعلمت منه كيف أشق طريقي بالعزم والصبر

إلى الأيدي التي ستبقى عامرة بالعطاء

إلى من يتمنى لي دوما النجاح

"أبي الغالي"

إلى من أعطتني الحب والحنان وجعل الله تحت قدميها الجنان

إلى ملكة روحي ونبض قلبي

"أمي العزيزة"

إلى من عشت معهم أجمل أيام العمر

إلى من تقاسمنا معا لحظات الحزن والفرح

"إخوتي وأخواتي"

إلى من عشت تجارب الحياة وقسوتها معهم

إلى من شاركني آلامي وآمالي

"صديقاتي"

إلى من علمونا حروفا من ذهب وكلمات من درر وعبارات من العلم، إلى من صاغوا لنا

منعلمهم حروفا، ومن فكرهم منارة تنير مسيرة العلم والنجاح

"الدكاترة والأساتذة طوال المشوار الدراسي"

إلى كل من ساهم في إتمام هذا العمل المتواضع وكان لنا العون في مسيرتنا

"شكرا لكم"

مقدمة

مقدمة:

حظـي الشـعر الجـاهلي بمكانـة متميـزة ومرموقـة منـذ القـدم إذ مثّـل الحيـاة الجاهليـة بكـل مظاهرها وجوانبها في معالجة قضايا المجتمعات والشعوب عن طريق طرحها وفق رؤى وتقنيات تصويرية وتعبيرية وعن طريق بثها في الفضاء وهذا ما يميزه كفن أدبي إذ يعد الفضاء الجغرافي في الخطاب الشعري الجاهلي عنصرا مهما ومفتاح من مفاتيح النص الشعري فيكاد يكون من أهم الركائز التي تتكون منها القصيدة الجاهلية ولنا أن نصف على الشعر الجاهلي بالشعر المكاني لأن كل شيء يحدث في المكان لا فكاك منه كما أن الإنسان لا ينفصل عنه، لأنهيعتبر امتدادا له، فالحياة لا تستوي بدونه، كما أن وميضه لا ينقطع ومن ثم اعتبر همزة وصل بين ذات الشاعر والنص، حتى أصبح هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر.

لم تعد دراسة الشعر الجاهلي تقتصر على الجانب الطبيعي أو الأركان المحدودة بحدود معينة أو على جنس أدبي معين، بل اتسعت لتشمل الجوانب الفنية والدلالية. من هنا كان الفضاء الجغرافي تشكيلية تعمل على إظهار حقيقة المكان في بعده الإنساني، فسأحاول في بحثي هذا أن أقف عند شعر لبيد بن ربيعة وأدرس تجليات الفضاء الجغرافي فيه بناء على هذا تبلورت مجموعة من الأسئلة وجب الإجابة عليها وهي:

- ما هو مفهوم الفضاء؟ وماهي مستوياته وحدوده؟
- ماهي دلالات الفضاء الجغرافي؟
- كيف تجلى الفضاء الجغرافي شعر لبيد بن ربيعة؟

وغيرها من الأسئلة التي فتحت لي آفاقا رحبة للبحث ولعل ما دفعني لاختيار هذا الموضوع أهمية مصطلح الفضاء وما يتميز به، والحضور الكبير للمكان في شعر لبيد العامري وخاصة معلقته، معتمدة على المنهجالوصفي التحليلي وعلى خطة ممنهجة تستهل بمقدمة يليها مدخل وفصلين فالمدخل كان عبارة عن جملة من المفاهيم وفيه تعرفت على مفهوم الفضاء ومستويات الفضاء من فضاء نصي ودلالي وجغرافي ثم عالجت إشكالية التعالق بين مصطلح الفضاء والمكان. أما فيما يخص الفصل الأول فقد عنونته بالفضاء في المقطع الطللي وأوردت فيه الارتباط بالمكان من خلال تعلق الشاعر بطبيعة أماكنه وفي العنصر الثاني تطرقت إلى القفر والزوال فكان

استحضاره لهذا العنصر في شعره بحسب الحالة التي هو فيها وفي العنصر الثالث درست وصف الحيوانات والدلالات المتناقضة تطرقت لأهم حيوانات الصحراء، وفي العنصر الرابع الدعاء للطل بالسقيا مبرزة أهم العناصر المساهمة في ذلك، في حين خصصت الفصل الثالث للفضاء من خلال الرحلة الصحراوية إذ حاولت إبراز خطر الصحراء، فقدان الابن من خلال صورة البقرة الوحشية وصف الصحراء في الليل ثم كان الحديث في هذا الفصل عن طلوع الفجر وتحقيق النصر وأنهيت بحثي بخاتمة أوردت فيها أهمالملحوظات والنتائج المستخلصة وحتى ألم بموضوع الدراسة استعنت بمجموعة من المراجع أذكر منها:

1.غراهام كلارك: الفضاء والزمن والإنسان

2. نوري حمودي القيسي:الطبيعة في الشعر الجاهلي

3.محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات

هذا ولا يمكن القول بأن البحث لم يخلو من الصعوبات وهذه طبيعة كل بحث، ولعل أبرزها قلة الدراسات حول الفضاء الجغرافي بالصيغة المتناولة وصعوبة جمع المادة العلمية، لكنني بعون الله أولا وبمساعدة المشرف وتوجيهاته تمكنت من تجاوزها، ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إخراج هذا العمل وأخص بالذكر الدكتور المشرف صالح مفقودة على سنده الدائم فإن أصبت فهذا من توفيق الله وإن لم أصب فهذا من تقصيري وأسأل الله الصواب.

مدخل:

الفضاء الجغرافي في الشعر

مدخل:

الفضاء الجغرافي في الشعر

أولا: مفهوم الفضاء

1. **من الجانب اللغوي**
2. **من الجانب الاصطلاحي**

ثانيا: مستويات الفضاء

1. **الفضاء الجغرافي**
2. **الفضاء النصي**
3. **الفضاء الدلالي**

ثالثا: التعالق بين مصطلح الفضاء والمكان

تمهيد:

يعد الفضاء الجغرافي في الأدب بصفة عامة صورة وموضوعا ونواة، فعلاقة الإنسان بالمكان تكمن في مدى ارتباطه الوتين به منذ ظهوره على هذه الأرض، والشاعر الجاهلي شاعر مغرم بالمكان يتغنى به ويستحضره في نصوصه لأنه هو الفضاء الأمثل الذي ينهل منه في إبداعه وتصوراته وشعوره. ومع اهتمام الشعراء به إلا أنه لم ينل حظه من الاهتمام والدراسة والوقوف على حيثياته ومكوناته في النص الشعري القديم الذي حفظ هذه الدلالة بين طياته فتنوعت الأمكنة وصارت محطة تجاذب الأفكار.

أولا: مفهوم الفضاء

1. من الجانب اللغوي:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (فضا):فضا، الفضاء: المكان الواسع من الأرض،والفعل فضا يفضو فهو فاض.وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسعوأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه وأصله أي أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه[1]بناء على هذا المعني فالفضاء يحملدلالة المكان المتسع. وهذا ما ذهب إليه صاحبمعجم المقاييس حيث يعتبر الفضاء كل مايحمل دلالة الاتساع يقول:

فضى: الفاء والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على انفساح في الشيء واتساع،من ذلكالفضاء: المكان الواسع، ويقولون أفضى الرجل الى امرأته باشرها أي كأنه لاقى فضاءها بفضائه، ليس هذا ببعيد في القياس الذي ذكر ومثل هذا: أفضى إلى فلان بسره إفضاء، وأفضى بيده الى الأرض إذا مسها بباطن راحته في سجوده[2]

وفي قاموس الوسيط الفضاء: ما اتسع من الأرض.والخالي من الأرض ومن الدار: ما اتسع من الأرض أمامها وما بين الكواكب والنجوم من مسافات لا يعلمها إلا الله[3]

من خلال سردنا لهذه التعاريف اللغوية نجدأنها تتفق في أن لفظ الفضاء يحمل دلالة الاتساع وله من الصفات السعة والاستواء والخلو والفراغ وعموما يمكن القول إن الفضاء في المعاجم اللغوية هو ما اتسع من المكان.

1- ابن منظور: لسان العرب،المجلد15، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ص158

2- أبو الحسين أحمد: معجم المقاييس في اللغة، تحقيق شهاب، دار الفكر، بيروت،(د.ت)، ص848

3-الفيروز أبادي: القاموس المحيط،تح: محمد نعيم العرقشوشي، مؤسسة الرسالة، دمشق،2005، ط8، ص1321.

2 – من الجانب الاصطلاحي:

شغل مفهوم الفضاء اهتمام كثير من الفلاسفة والمفكرين والباحثين وان الدارس له يقف على صعوبة تحديد هذا المصطلح، إذ تتغير المفاهيم بتغير وجهت نظر ومنطلقات كل باحث فينطلق "غاستونباشلار"(Gaston Blachlar)في تحديد مصطلح الفضاء من دلالة البيت. يقول عن الفضاء: إنّه ركننا في العالم، إنه كما قيل مرارا، كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى[1]فالبيت كما يتضح من خلال تعريفه هو أساس الوجود الذي يرتبط بكينونة الإنسان، فالإنسان دون فضاء لاسيما البيت يصبح كائنًامفتتا لا استقرار له.

ويقول الباحث "غراهام كلارك": البعد الإنساني الذي تتنقل فيه الكائنات هو بعد المكان، فهي مهيأة لاستكشاف بيئتها المكانية لكي تحدد موقع الفرص الأكثر ملاءمة لإشباع شهواتها[2]

إنهيهدف إلى إظهار كيفية تحقيق البشر لإنسانيتهم عن طريق إحراز وإدراك مكانتهم الخاصةفي الفضاء ودورها الفاعل في رسم العلاقة بينهم وبين العالم المحيط بهم

كما تطرقت الناقدة "شريف حبيلة" إلى هذا المصطلح بقولها: "إن الفضاء هو شرط الوجود الإنساني الذي لا يحدد ذاته إلا به وفيه يمارس الحضور والغياب من خلاله، فالشخص حينما يحضر إنما يحل في فضاء وعندما يغيب فهو يتنقل من فضاء إلى فضاء آخر، والفضاء بهذا المعنى هو البداية والنهاية، إنّه عنصر ثابت محسوس يسهل له ثباته القابلية للإدراك من طرف كائن مستقر أو متحرك"[3]إذن فالناقدة حددت مفهوم الفضاء من خلال أنهالإطار الذي يمارس فيه الإنسان حياته وهو عنصر ثابت قابل للإدراك.

كما اهتم "حسن نجمي" بدراسة الفضاء يقول: العالم الفسيح الذي تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال وبقدر ما يتفاعل الإنسان مع الزمن يتفاعل مع الفضاء، ومعنى ذلك أن تاريخ الانسان هو تاريخ تفاعلاته مع الفضاء أساسيا. فالباحث بين أن الفضاء عنصر يتفاعل معه الإنسان كما يتفاعل مع عنصر الزمن[4]

---

1 –غاستونباشلار: جماليات المكان، تر: غالب هالسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3/1984، ص36.

2– غراهام كلارك: الفضاء والزمن والإنسان، تر: عدنان حشن، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2004،ص14.

3– شريف حبيلة: مكونات الخطاب السردي، مفاهيم نظرية، عالم الكتاب الحديث،الأردن، 2011،ص39.

4– حسن نجمي: شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص59.

ومن جانبه ينطلق الباحث السيميائي "يوري لوتمان" (Youri Loutman)في تحديد مفهوم الفضاء انه مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة[1]

فقد بنى دراسته على مجموعة من التقاطبات المكانية التي ظهرت على شكل ثنائيات ضدية تجمع بين عناصر متعارضة وتعبر عن العلاقات والتوترات التي تحدث عند الاتصال بأماكن الأحداث من خلال العلاقة بين الأشياء والظواهر والحالات التي تحدد الفضاء وتشكله وقد قسم "لوتمان" الفضاء الى أربعة أصناف معتمدا على تقسيم "مولورومير"وهي كالآتي:

1_ عندي: وهو المكان الذي أمارس فيه سلطتي، ويكون بالنسبة لي حميما وأليفا.

2_ عند الآخرين: وهو مكان يشبه الأول في نواحٍ كثيرة، لكنه يختلف عنه من حيث أنني بالضرورة أخضع فيه لوطأة سلطة الغير ولا بد لي أن أعترف بهذه السلطة.

3_ الأماكن العامة: هذه الأماكن ليس ملكا لأحد معين، ولكنها ملك للسلطة العامة، النابعة من الجماعة التي يمثلها الشرطي المتحكم فيها.

4_ المكان اللامتناهي: يكون هذا المكان بصفة عامة خاليا من الناس، فهو الأرض التي لا تخضع لسلطة أحد، مثل الصحراء، هذه الأماكن لا يملكها أحد[2]

والحاصل مما تم عرضه عن الفضاء أنه يعد من المصطلحات التي لا تقف على تصور معين فقد اتضحت معالمه ووجوده منذ وجود الإنسان ومن ثم فإن مفهوم الفضاء يتحدد تبعا لطبيعة الدراسات ومنهجها.

[1] –شربيط أحمد شربيط: الفضاء (المصطلح والإشكاليات الجمالية)، الحياة الثقافية، الشركة العالمية للطباعة، تونس، 1994،ص26.

[2]–المرجع السابق، شربيط أحمد شربيط: الفضاء (المصطلح والإشكاليات الجمالية)، ص7

ثانيا: مستويات الفضاء

لقد استشعر مجموعة من الباحثين ضرورة وجود بنية فضائية تكونمرجعا لهم فيمقارباتهم وتبين من خلالها أن الفضاء يتخذ عدة أشكال هي:

1- الفضاء الجغرافي:

الفضاء الجغرافي (المكان) وهو أحد العناصر الفنية الحتمية التي يبنى عليها العمل الأدبي عامة والإبداع الشعري خاصة، إذ لا يمكن أن نغفل عنه حين نقوم بدراسته في ظل التطور المنهجي والعلمي وهو مقابل لمفهوم المكان ويتولد عن طريق الحكي ذاته ، إنه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال، أو يفترض أنهم يتحركون فيه (1)فلفظ الجغرافيا انطلاقا من أصله الإغريقي القديم يعني علم المكان أو مثول المكان في مظاهر مختلفة وأشكال متعددة: الجبال، السهول، الوديان، الهضاب، الغابات...[2]غير أن الجغرافيا أصبحت تتصرف إلى تحديد أمكنة بعينها. كما يعني أيضا ذلك العلم الذي موضوعه وصف وشرح الحيز الراهن، الطبيعي والإنساني لوجه الأرض. فكل الأحداث السردية لا بد أن تحدث في حيز معين وهذا الحيز هو الفضاء الجغرافي فهو كيان مادي يشكل طرفا هاما من التاريخ الخاص للعمل الأدبي إذ يعد تشكيلا وتصورا عاما لكل المكونات الأدبية فالمكان لا بد أن يشكل في العمل الإبداعي جزء أساسيا من هندسته ومعياريته وليس مظهرا تزويقيا و أهمية هذا المكون لا تتأتى إلا إذا روعي اكتمال وتكامل مقومات الأسلوب فيتحول الفضاء الجغرافي الى بعد جمالي من أبعاد النص الأدبي، مما سبق يتضح أن الدراسات اعتمدت على المكان كحد من حدود الفضاء الجغرافي وذلك لما خص به المكان ليشمل الجغرافيا ككل.

2- الفضاء النصي:

إذا كان الفضاء الجغرافي صورة مكانية فان الفضاء النصي هو الصورة المرئية للواحق النص المكتوب.

ويقصد بالفضاء النصي الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها، باعتبارها أحرفا طباعية على مساحة الورق، ويشمل ذلك طريقة تصميم الغلاف، ووضع المطالع وتنظيم الفصول وتغيرات الكتابة المطبعية

---

[1]- محمود الحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط1، 1991، ص62.

[2]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب،عالم المعرفة، الكويت، 1998،ص123.

وتشكيل العناوين وغيرها [1]إن الفضاء النصي هو أيضا فضاء مكاني، لأنه لا يتشكل إلا على المساحة، مساحة الكتاب وأبعاده غير أنه محدود ولا علاقة له بالمكان الذي يتحرك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرك فيه على الأصح عين القارئ، هو إذن بكل بساطة فضاء الكتابة الروائية باعتبارها طباعة. إن الفضاء النصي ليس له ارتباط كبير بمضمون الحكي، ولكنه مع ذلك لا يخلو من أهمية، إذ انه يحدد أحيانا طبيعة تعامل القارئ مع النص الروائي أو الحكائي عموما ، وقد يوجه القارئ الى فهم خاص للعمل، تتضح على أساسه فسيفساء النص الكتابي الذي ينشر أو يتمثل كتابيا عبر الكتابة التي تتموضع في الفضاء، ويتلقى بواسطة العين، ويؤكد على مبدأين متجاورين ومتلازمين هما: مبدأ البنية المتمثلة في الفضاء النصي "الذي يتم فيه تسجيل الدال الخطي بحيث يتم إدراكه كعلاقات داخل نسق يحدده المقام الخطابي وهو فضاء لا يستدعي مشاركة ولا موقعا محددا لجسد المتلقي، لأن هذا الأخير يوجد ملغى في هذه الحالة " ومبدأ الشكل المتمثل في الفضاء الصوري الذي "يستدعي مرجعية في موقع المتلقي ومشاركة تؤشر عليها مدة التلقي البطيئة التي تعرض المسح البصري السريع من أجل امتلاك الشكل لا امتلاك العلاقات" [2]

منخلال ما سبق يتضح أن الفضاء النصي هو أيضا فضاء مكاني لأنه يتشكل عبر المساحة، مساحة الكتاب وأبعاده، فهو الشفرة أو القانون الذي يوجه القارئ في عملية القراءة وعليه تتحقق كتابة النص الشعري وتتداول على حساب العلامات المكونة له منه.

3- الفضاءالدلالي:

يهدف الفضاء الدلالي أساسااإلى التعرف على القوانين التي تشرف على النظام اللغوي وذلك بتحليل نصوص لغوية بقصد ضبط المعاني المختلفة بأدوات محددة وفي هذا سعى الى تنويع التراكيب اللغوية لأداء وظائف دلالية معينة،أشار "جيرار جينيت" إلى هذا الفضاء وشرح طبيعته على الشكل التاليحيثبينأن لغة الأدب بشكل عام لا تقوم بوظيفتها، بطريقة بسيطة إلا نادرا، فللتعبيرالأدبي معنى واحد، انه لا ينقطع عن أن يتضاعف ، يتعدد، إذ يمكن لكلمة واحدة مثلا أن تحمل معنيين تقول البلاغة عن احدهما أنه حقيقي والآخر بأنه مجازي ، هناك إذن فضاء دلالي يتأسس بين المدلول المجازي ، والمدلول الحقيقي وهذا الفضاءمن شأنه أن يلغي الوجود الوحيد للامتداد الخطي للخطاب [3] فالفضاء الدلالي يرتبط بصورة الحقيقة والمجاز

---

[1]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب،المرجع السابق، ص55.

[2]- ينظر: المرجع السابق، محمود الحمداني، بنية النص السردي، ص56.

[3]- المرجع نفسه، ص60.

حيث إنه ليس للكلمة معنى ثابت وإنما يتغير معناها على الدوام فليس للتعبير الأدبي معنى واحد إنه لاينقطع عن أن يتضاعف، ويتعدد إذ يمكن لكلمة واحدة مثلا أن تحمل معنيين تقول البلاغة عن أحدهما بأنه حقيقي، وعن الآخر بأنه مجازي ذلك أن مرونة النظام اللغوي تسمح بوجود هذا التداخل المستمر لتغدو الدلالة المجازية بالاستعمال المتداول دلالة حقيقية ويتوجه كما أشرت سابقا صوب المعاني المجازية التي تنبثق عن المعاني الظاهرة الحقيقية.

ويعتبر "جيرار" بأن هذا الفضاء ليس شيئا أخر سوى ما ندعوه عادة (صورة)figureويقول في الموضع نفسه حول هذه النقطة بالتحديد : إن الصورة هي في الوقت نفسه الشكل الذي يتخذه الفضاء، وهي الشيء الذي تهب اللغة نفسها له، بل إنها رمز فضائية اللغة الأدبية في علاقتها مع المعنى [1]فهو يعتمد على ثنائية الدلالة والصورةحيثتقوم هذه الأخيرة على دراسة المعاني التي تتحول في مقامات الصورة الى مقاصد وتقضي أن العبرة في نجاح المعنى.

[1]– المرجع السابق، محمود الحمداني: بنية النص السردي، ص61.

ثالثا: التعالق بين مصطلح الفضاء والمكان:

لا يمكن إنكار ما للفضاء من أثر يتسع على مستوى الاصطلاحات المستخدمة للتدليل عليه وعن مصطلح المكان وماسجله من تداخل في استخدامهما رغم محاولات بعض الباحثينالفصلبينهما إلا أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح فإذا كان الفصل بين الفضاء و المكان ضروريا ويستلزم قراءة جدية للقيام يه فإنه بالمثل أن لا تلح عليه كثيرا، بل الأفضل أن نكتفي بتشغيل الفضاء على امتداد الدراسة و نذكر المكان حيث ينبغي أن يذكر ما يوحي أن عملية الفصل بين المصطلحين أمر عسير وصعب، وترجع بداية هذه الصعوبة والخلط الذي حدث بين مصطلحي الفضاء والمكان هو سوء التعامل مع ترجمة كتاب "غاستونباشلار" **جماليات المكان**؛ إذ تم تحويل وتعريب مصطلح الفضاء Espace بالمكان فرغم محاولات النقاد العرب للفصل بين المصطلحين، إلا أن كل هذه المحاولات لاقتها الكثير من المطبات فاستمر ذلك التداخل والتعالق والسجال بين المصطلحين وانتهت الى "اعتبار المكان أساسا فضاء"[1]عندئذ فكل فضاء هو مكان وهو بدوره سليل لأمكنة أخرى، وبالتالييمكن القول أن الفضاء أوسع من المكان ذلك لأن مفهوم الفضاء أكثر انفلاتا وشساعة من مثل هذه التحديدات الضيقة وإلا ماذا تقول بالنسبة لفضاء الحلم، الموت، الذاكرة و الهوية وهو ما أشار إليه حسن نجمي، بحيث أطلق مصطلح الفضاء على كل ماله علاقة بوجود متخيل، أي تحول المكان إلى متخيل تعكسه الصورة. وهذا ما يوحي عنده أن الفضاء هو المكان فهو يربطه بالمكان ذلك إن" الفضاء بالأساس يكون مكانا لمجربالعناصر وكل عنصر يتموقع فيه يبدي حركية هي بصورة ما باطنية"[2]الأمر الذي أكد التداخل بينهما فاستمرت تلك الازدواجية في استخدامهما معا، وحسن نجمي يستشهد برأي جرار جنيت الذي مارس عملية الجمع بين الفضاء والمكان فقد ركز في إطار حديثه عن الأدب والفضاء وعن الوجود الزمني للعمل الأدبي متخذا من فعل القراءة أداة ووسيلة لتحقيق الوجود المفترض للنص المكتوب وعن ذلك يقول:"ربما يبدو مفارقا الحديث عن الفضاء بخصوص الأدب ذلك أن صيغة وجود عمل أدبي ظاهريافيالواقعهيأساسازمنية، علىاعتبارأنفعلالقراءةهوالذيتحققبهالمكانالمفترضلنصمكتوب، هذاالفعلالذييشبهتوليفةموسيقيةمنحيثهوعبارةعنمتتاليةمناللحظاتالتيتكتملفيالديمومة"فقددعاإلىالبحثفيعلاقاتالأدبوالفضاءلأنموضوعاتالأدبتتناولالفضاءوتصورالأمكنةوالإقاماتوالمناظرالطبيعيةوهومايأخذناكمايقول حسن بحراوي إذلم يميز بين المصطلحين (المكان/الفضاء) يقول:يمكننا النظر إلى المكان بوصفه شبكة من العلاقات و الرؤيا

[1]– المرجع السابق، محمود الحمداني: بنية النص السردي، ص 44.

[2]– المرجع نفسه، ص 66.

ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشييد الفضاء [1]يشير إلى المكان بأنه يتميز بمجموعة من العلاقات التي بدورها تتشابك لتكون الفضاء فنعده عنصرا مساعدا على استجلاء الفضاء ككل حيث ينظر إليه نظرة تقليدية تعني المكان

وتضفي "سيزا قاسم" على المكان في العمل الروائي مفهوم الفضاء حيث تجعل منه عالما متخيلا تصنعه الكلمات كون الفضاء الجغرافي يظهر في بعض الأعمال عنصرا فعالافي تكوين شخصية الإنسان وطبعها بطباعهفظل فهمها للمكان بصفته فضاء جغرافيا ومن هذا المنطلق فالفضاء بالنسبة لها هو المكان بعينه. أما إذا جئنا لحميد الحمداني عندما تحدث عن تعددية الأمكنة في الرواية قال بأن مجموع الأمكنة، هو ما يبدو منطقيا، أن نطلق عليه فضاء الرواية[2] يعني أن الفضاء ملم لأمكنة الرواية حيث يعتبر شامل لمصطلح المكان في حين إن الفضاء يفترض دائما تصور الحركة داخله، أي يفترض الاستمرارية والزمن وهذا المخطط يوضح شمولية الفضاء للمكان.

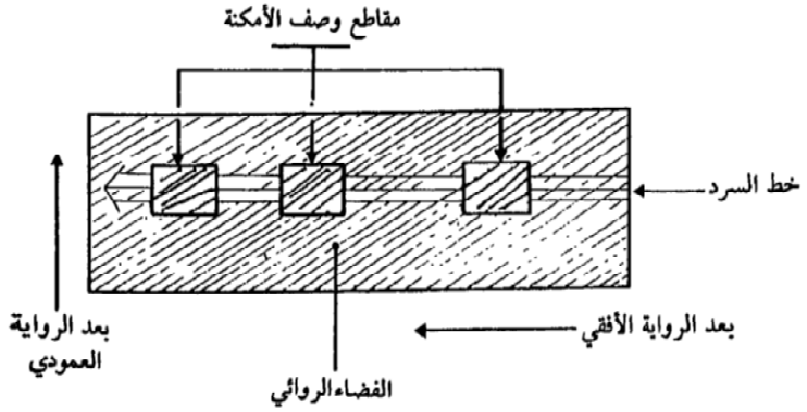

(3)

يشير هنا إلى أن مصطلح الفضاء أعم وأشمل من المكان لأن الأول يحتوي ميع الموجودات بينما الثاني يشمل بعض الأجزاء التي تتحرك فيها الشخصيات كالصحراء الطلل المدينة القرية وغيرها لذلك لم يستطع روائيين العرب التوفيق بين المصطلحين وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى شساعة الحقول المعرفية مما أدى إلى تداخلهماآثرهنا استعمال مصطلح الفضاء أنه الأكثر شمولية وشيوعا واتساعا في الدراسات

[1]– حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 1999، ص32.

[2] –سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ. دار التنوير، بيروت، ط1، 1985، ص101.

[3]–المرجع السابق، محمود الحمداني: بنية النص السردي، ص64.

نجد أيضا الدكتور "سلمان كاصد" أيد رأي حميد الحمداني ويعتبر أن فضاء الرواية هومجموع الأماكن التي تهم في احتواء الحدث أو الشخوصفالفضاء شمولي يلف المسرح الروائي بجميع أطيافه لذلك اتجه الروائيون إلى إبراز جمالياتأمكنتهم وإحاطتها بالعناية لتحقيق رغباتهم وأذواقهم فهو ما يحيلنا على رسم الفضاء المتسع من خلال اللغة المناسبة للرواية[1] فيتضح من خلال هذه الرؤية أنه لم يميز بين الفضاء والمكان حتى في المجال والفراغ وهو متشبث بالفضاء كونه قادر على أن يشمل المكان اتجاها وبعدا ومجالا فهو يتولد عن طريق اللغة التي هي أساس الكتابة.

من كل ما سبق يتضح لنا أن الدراسات اعتمدت المكان المحدود كتجلٍّ من تجليات الفضاء الجغرافي ويرجع ذلك لما يختص به المكان من أثار عبر الزمن، إذ يعتقد بعضهم أن للمكان الجغرافي أصولا ضاربة في القدم تغوص جذورها في أعماق الماضي، وأنه لابد لأي عمل من أن يرتبط بشكل من أشكال المكان[2]

في الأخير نستنتج أن هناك تعالق وتداخل بين مصطلح الفضاء والمكان حيث لا يمكن الفصل بينهما ولا يمكن الحديث عن الفضاء بمعزل عن المكان فتوظيف أحدهما يستدعي بالضرورة توظيف الأخر.

[1]–سلمان كاصد: عامل النص السردي دراسة في الاساليب السردية، دار الكندي، بيروت، 2003، ص165.

[2]–ينظر، سمر روحي الفيصل: الرواية العربية (البناء والرؤيا مقاربات نقدية)،من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، د. ط،2003، ص71.

الفصل الأول:

القضاء في المقطع الطللي

الفصل الأول:
الفضاء في المقطع الطللي

أولا: الارتباط بالمكان.

ثانيا: القفروالزوال من خلال الطلل.

ثالثا: وصف الحيوانات والدلالات المتناقضة.

رابعا: الدعاء للطلل بالسقيا.

في هذا الفصل سأدرس أهم العناصر التي شكلت الفضاء من خلال المقطع الطللي عند لبيد بن ربيعة.

أولا: الارتباط بالمكان:

الإنسان بشكل عام في رباط عميق مع المكان، يجعله أكثر عمقا وإدراكا لمعطياته، التي يمنحها ديناميكية التفاعل ويضفي عليها صورا جمالية. فالإنسان لا يستطيع أن يبرح المكان الذي يحتويه في حياته ومماته فهو جزء منهلذا شكل المكان في العصر الجاهلي بالنسبة للشاعر عاملا لتحريك شاعريته من خلال علاقة التلازم، التي تسهم في تداعي الذكريات وأداة تفضي إلى إبراز منجزا شعريا يشكل مقياسا يشير إلى ارتباط الشاعر بالمكان وما يحمله من ذكريات وأشجان أو مواطن الحبيب أو الموضع الذي رحل عنه. فلقد وظف الشعراء المكان في شعرهم منذ القديم، وهذا ما نلاحظه في الشعر الجاهلي فقد كان عنصرا مهما يشكل محورا أساسيا وجوهريا في قصائدهم حيث نجد أن معظم الشعراء إن لم نقل جلهم استعملوا المكان في قصائدهم وذلك راجع للصلة الوثيقة التي تربط تلك الأمكنة بالإنسان بصفة عامة والشاعر بصفة خاصة[1] ، فلم تعد دراسة المكان قاصرة على الجانب الطبيعيأوعلى الأركان المحدودة بحدود معينة أو على جنس أدبي معين فحسب، بل اتسعت لتشمل الجوانب الفنية والدلالية والجمالية، أخذ فيها المكان أبعادا جديدة تضاف إلى الأبعاد التي ألفها الشاعر القديم والتي ارتبطت بجوانب مختلفة ومتباينة، ومتعددة تبدو في صورة الحب أحيانا والتأثير الاجتماعي تارة أخرى، والجانب الفني تارة أخرى، تكشف عن علاقات الارتباط بين الشاعر والمكان.

يقول "حازم القرطاجني" : "ولما كان أحق البواعث بان يكون هو السبب الأول الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق إلى المنازل المألوفة، وتذكر عهودها وعهودهم الحميدة فيها، وكان

[1]– ينظر، مجد الدولة الأمير أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، المنازل والديار، الجزء الثاني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1965، ص302.

الشاعريريد أن يبقى ذكرا أو يصوغ مقالا يخيل فيه حال أحبائه"[1] نجد ارتباط الشاعر بالمكان ليس بوصفه مكانا فحسب وإنما من خلال ظاهرة الطلل التي أكسبته نمطا محاكيا وبذلك كان البكاء على الأطلال الخطوة الأولى التي بدأ بها الشاعر ليعبر عن مدى ارتباطه بالمكان. يقول لبيد في مقدمة معلقته.

عَفَــت الِّــدَّيار مَحِلُهــا فَمَقَامُهَــا ... بِمِنــى تِأبَــدَ غَولُهَــا فَرِجــامُهَا

فَمَــدافِعُ الَّريــانِ عُــرِّي رســمُها ... خَلقــا كَمــا ضَــمِن الُّــوحَيُ سَــلَامُها

دِمَــن تَجَّــرم بعــد عَهــد أَنَيسِــهَا ... حِجَــج خَلــون حَــــلالُها وحَرامهَــا

رُزِقــت مَرابِيــعَ الُنجُــومِ وِصَــابُها ... ودّقُ الرَّوَاعــــدِ جُودُهــا فَرِهَامُهــا[2]

مما لا شك فيه أن في بكاء الجاهلي على الأطلال رمزية تدل على تعلق الشاعر بوطنه وأصالة حبه ووفائه له، ومن الصور الشائعة في المقدمة أن يبدأ الشاعر بذكر المكان "الديار" ويحدد مكانها، ينطلق الشاعر هنا من فعل العفاء فعفت ديار الأحباب وانمحت منازلهم منهاما كان للحلول دون الإقامة وما كان منها للإقامة والإطالة فيها كانت في الموضع المسمى بمنى ويخبرنا بمكان التأبد تلك الجبال التي تعرف بالغول والرجام فالكناية في غولها ورجامها راجعة إلى الديار فقد توحشت وتوحشت مدافع المياه و عراها السيول لارتحال الأحباب والجيران. الإقامة في الديار والرحيل عنها والبكاء مع الوقوف على آثارها، لايعني الديار نفسها وإنما يعني ارتباط النفس بتلك الأماكن ومن يسكنها وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بهذا الكلام، ذلك أن العلاقة بين المكان والإنسان لا يمكن أن تكون شكلية فقط وإنما هناك اشتراك في الشكل والمضمون.

---

[1]– أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986، ص249.

[2]– أبي عبد الله الحسين بن احمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، لجنة التحقيق في الدار العالمية، دط، بيروت، 1992، ص 70،89.

هذا الترابط بين المكان والشاعر والمكان غدا محورا أساسيا من محاور القضية الإنسانية التي تستمد منه مظاهر القوة والشجاعة يقول لبيد:

هَل تَعرِف الدَار بِسَفح الشَربَبَة مِن قُلل الشَّحر فذاتِ العُنظُبَة[1]

الشاعر هنا يوضح أن هذا "الشربب" وهو جبل في ديار بني ربيعة إنه يبعث فيه روح القوة والشجاعة ويبين مدى ارتباطه به لأنه من منازل قومه، فهو يحمل دلالة الاعتبار إلى جانب معاني الوفاء في أحد جوانبه ليس إلا تشبث الشاعر بوجوده المكاني.

يقول أيضا:

بِمشَـــارِق الجَبلـــين أو بمُحجَـــر فتَضـــــمنتها فـــــردةُ فرُخامُهـــــا
فصُوائِق إن أيمنت فَمِــظنةّ فِيهـا وِحـافُ القَهـرِ أو طَلخَامهـا[2]

جسد الشاعر هذه الأماكن التي حلت بها نوار وهي امرأة من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان حلت بفلاة فيد الواقعة بين أسد وطيء، كما أنها جاوزت أهل الحجاز إلى أن وصلت لمشارق جبلي أجا وسلمى أو بقرن محجر في ديار بني بكر، فاحتوتها مياه فردة وجبل رخام القريب منها، فجبل صوائق قرب مكة واتجهت نحو اليمن ويظن أنها بتلك الإكام المسماة وحاف القهر أو وادي طلخام والأرض المحيطة به. والمقصود من تعداد هذه المواضع والأماكن أن محبوبته نوار قد مرت أو نزلت فيها فتركت أثرا في نفس الشاعر فأصبح متعلقا بتلك الأماكن ويحن إليها هذا التعداد إلى جانب أهميته لدى الشاعر يشير إلى العلاقة الرابطة بينه وبين أرضه فما لاشك فيه أن إصرار الشاعر على ذكر تلك "الأماكن التي سكنها إنما هو من شدة تعلقه بها وحبه إياها بصفتها الوطن الذي ينتمي إليه وهذا يباعد بين الشعر وتعداد الأماكن لمجرد التعدادي"[3] ليظهر مدى التوحد الروحي والنفسي من خلال رؤيته الأشياء بطريقة ظاهرتية تتناول

[1]– ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق احسان عباس،سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت،1962، ص355.

[2]– المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص94.

[3]– جريدي سليم المنصوري: شاعرية المكان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، د. ط، 1992، ص67

وجودها في بعدها الفضائي الذي تقع فيه التي تظهر لنا برؤية المحب المعجب المرتبط بهذا المكان ويعد التعلق بالمكان ظاهرة نفسية واجتماعية، وبذلك يبدو الارتباط والاتصال به أمر لا يناقش، وبالتالي فالتوحد معه حتمية نفسية لا مجال للمراهنة عليها، فالمكان يحمل حميمية لا حدود لها، بحيث هو الذي حمل الإنسان منذ طفولته، أين تبادل فيه العواطف والمحبة وتلقى فيه مبادئه الأولى لحب هذا المكان فرغم قدم الأحداث وتوالي الزمن وتغيير المكان ، إلا أن الاتصال به لا تشوبه شائبة، بحيث يبقى ذلك الارتباط متواصلا[1]ولعل حديث الشاعر عن تقلب الحياة وتغيير ملامح المكان وماحل به بعد رحيل أهله دليل على تشبثه بهذه الأماكن يقول لبيد:

تَحمِلُ أَهلَهَا إلا عِرَارَا وَعزَفَا بَعد أَحيَاءِ حَلاَل
وخَيطَا مِن خواظِبَ مُؤلفاتِ كَانَ رِئالَها أَرق الإفَالِ[2]

فهو يخبر برحيل أهل هذه الديار عنها ولم يبقبعدهم إلا أصوات ذكور النعام ،وأصوات كثبان الرمال التي تليها الرياح، لكن الشاعر شديد التعلق بهذه الديار و بهؤلاء الذين رحلوافيواصل الشاعر حديثه وما حل بهذه الديار بعين المحب التي ترى الجمال بكل ما له صلة بهذه الأماكن وهكذا أطلعنا لبيد من خلال هذه الأبيات على شدة تعلقه وارتباطه بهذه الديار لذا كان وصف الأطلال عنده مع ذكر الرحيل لا يخلو من ذكر أسماء المواضع والمناطق والمكان، فالمكان عميق الأثر في حياة الإنسان إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به وما من فعل إلا وهو مستوح لبعض دوافعه منه، وهو أعمق وأكبر، وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف أو وعاء وأن يقتصر فيه، فكل مجالات الحياة تشهد الحضور الكثيف للمكان وهذا يدل على ارتباط الشاعر بتلك الأماكن،فالشاعر عاش في أماكن متعددة وانتقلفي ربوعها متأثرا ومتعلقا بها.

[1] – محمد مصطفى علي حسانين: استعادة المكان (دراسة في آليات السرد والتأويل)،الهيئة العامة لقصور الثقافة،مصر،2002،ص15.

[2] – الديوان، ص274.

كان الحديث عن المكان لدى الشاعر في الكثير من الأحيان للتعبير عن مشاعره، ووصفكل ما يحيط به، فكانت المرأة رمزا لذلك، حيث جعل المكان الخاص بالمرأة من الأمكنة المهمة وهذا لبيد يصف الديار والأطلال يقول:

طَلَل لخَولَةَللرُّسَيـــــس فبِعاقَلفالأَنعَمينِزِسُـوم

فكـأّن مَعرُوف الـديارِ بقـادم أو مُـذهب جَـدَدُ فَبُرَاقُ غُول فالرِّجَامِ وُشُـومُ

عَلـى ألوَاحِدِمَنُ تَلَاعَبَتِ الرِيَاحُبِرَسـمِهَا هنّ الناطقُ المَبرُوزُ والمَخُتـومُ

حتَى تَنكَر نُؤيُهَا المَـهدُومُ[1]

وقف الشاعر عند ديار المحبوبة التي أصبحت آثارا ورسوما لطول الزمان وتلاعب الرياح بها فتأثر لفراق أهلها وتغيرها من حال إلى حالوهو ما ولد فيه عواطف وانفعالات الحزن التي كانت محزونة في نفسه وذاكرته، ويستذكر ما كان فيها من شوق وحنين، فتلك الديار تذكره بمحبوبته والأيام التي كان يقضيها معها فيها هذه الديار تغيرت وزالت بفعل الرياح.

هذه التغيرات وما آلت إليه تلك الديار من خراب أثرت في نفسية الشاعرنتيجة لما يفتقده من حنين وشوق كان فيها، وكذا بفعل الاستجابة التي أثرت "في جانبه الشعوري وإحساسه الداخلي وانفعاله الخاص"[2]وهكذا يتضح لنا أن المكان في هذه الأبيات افرز لنا صورة مرجعية رومانسية تجلت في ألم فراق الشاعر لمحبوبته دعت إليها علاقة الغزل الرابطة بين الرجل والمرأة وهو يشكو أطلالها ورسومها وذلك من خلال ارتباط النفس بمن سكن تلك الديار، هذه الأخيرة التي بدورها تثبت مدى ارتباط الشاعر بالمكان وتعلقه به.

ولاشتمال الدار على معاني الألفة والاجتماع فتلك الأماكن كانت ملازمة للإنسان، فهي داره ومسكنه الذي يأويه وهي حاوية لتجاربه الواقعية، تعني موقفا معينا للشاعر عاشه أو عاش فيه من فاتحته

---

[1]- الديوان، ص182،181

[2]-عطوان حسين: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، 1970، ص 87

إلى خاتمته، لأول مرة بحيث أبرزه عملا قائما بنفسه، عملا له كيانه وصفاته، وله وضوح التجارب الكبرى التي تمر بنا في حياتنا[1]كما كانت هذه الأماكن تقرب العلاقات بين الناس وتجمعهم على الإعانة قال الشاعر:

تَأوي إلى الإطناب كلَّ رَذيلة مِثل البَلية قَالصأَهدامُها
ويُكلِلُون إذا الرِياح تَناوحت خِلجا تمد شوارعا أيَتامها
إنَا إذا التقتِ المجَامع لَم يَزل ما لزَاز عَظِيمة جِشامُها[2]

يفتخر الشاعر بقومه جاعلا من المنازل والبيوت مأوى للفقراء واليتامى، فهم يطعمونهم ويحسنون إليهم،هذه الصفات والمحاسن ارتبطت بالمكان فكانت تلك الديار رمزا للإحسان والمساعدة. حيث منح المكان" صفات إنسانية تكشف عن عمق العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان، الذي أصبح جزءا من الماضي بما كان يحمله من مباهج الحياة وتألقها

هكذا كان الشاعر الجاهلي مرتبط بالمكان، هذا المكان الذي كان محل نشاطاته في حياته اليومية المتمثلة في شبكة من العلاقات التي تربطه ببيئته، وتمنحه هويته وتوفر له المجال المعيشي فالمكان من مقومات حياة الشاعر يؤمن بديمومته واستقراره عبر من خلالهعما يجول في خاطره، وما تكنه نفسه من مشاعر وأحاسيس متخذا منه طريقا للتعبير، ومشاركا وجدانيا له، فكشف بذلك مدى ارتباطه ببيئته وتعلقه بها، لذلك نجد أن المكان ليس ذلك المعطى الخارجي المحايد الذي نعبره، دون أن نأبه، وإنما المكان حياه لا يحده الطول و لا العرض.

[1] – مصطفى الّسيوفي: الإبداع الشعري بين النظري والتطبيقي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، ط1، 2011،ص23.

[2] – الديوان، ص178

ثانيا: القفر والزوال من خلال الطلل:

ظاهرتا القفر والزوال ظاهرتان بارزتان في الشعر الجاهلي فيما أنجزته قرائح الشعراء التي صورت معاناة الإنسان إزاء متقلبات الظروف الحياتية والبيئية التي أحالت حياته عذابا وتعاسة فالشاعر في الوقفة الطللية يستجلي موقفه من المجهول وهو يقف وسط الأماكن المهجورة التي غادرها "ذلك الحنين الذي يعتري الشاعر عند رؤية أطلالها وهو راكب في القفار"[1] ويقف على أرضها، ويحصي أثارها من أحجار ورماد ونؤى، وأحواض، وأعواد، متناثرة هنا وهناك، ثم يصف إقفارها من أهلها بعد رحيلهم منهايقول لبيد بن ربيعة:

بأجزةالثلبوت يربأ فوقها قفر المراقب خوفها آرامهاُهَا[2]

يبدو هذا المكان الخالي مرقبة للبقر الوحشي فاختار القفر مكانا مفتوحا في ذلك الجبل العالي ليستطيع إدراك النجاة من صياد حمل معه أسلحته من أجل الإطاحة به، لذلك فالمكان المفتوح يكون فيه الشاعر أكثر عرضة للموت، إذ لن يستطيع تحديد سهامه التي قد تصيبه، بل يبقى يخفي الكثير من الأخبار غير السارة ويبدو ذلك من استخدامه لكلمة قفر التي ابتدأت بحرف القاف الذي يتصل اتصالا قويا في المعاجم العربية بالقساوة والصلابة والشدة وهو يعني أن الشاعر عند استخدامه لهذا اللفظ كان يهدف ورائه إلى تلمس أرض واسعة ومكان مفتوح في كل زاوية من زواياه وفي كل شبر من هذه الأرض، علامات على وعورة دروبه لذلك أصبح منطلقا غير قابل للتحكم، بل شدة وصلابة بعض أماكنه تركت الباب مفتوحا أمام تأويلات متعددة، وفيه كثرت الصدمات بين مختلف الأطراف المتصارعة: الإنسان، الحيوان، الطبيعة ، مما يجعل عنصر المفاجأة السمة التي خيمت عليه، وما من عنصر من هذه العناصر السابقة لا يستطيع أن يفرض منطقه، لذلك بقي هذا المكان ضامرا لأحداث غير معلومة وقد يسقط الباحث معالم فضائه على الشعر الجاهلي فيرى أن أمكنته تنقسم إلى مقر الإقامة حيث الراحة والطمأنينة ومكان التنقل حيث المتاعب، مع العلم أن النوع الثاني أكثر إطراء وارتباطا بشعرية الجاهلي المرتحل بطبعه

[1]–المرجع السابق، حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص114.

[2]– المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص93.

والرافض لكل أنواع الاستقرار الدائم الذي لا يرى فيه معالم الراحة بل يراه تقييدا لحريته ووجها من وجوه الموت وبهذا يكون الشاعر وفق هذه الخاصية قد اختار المكان المفتوح ليلقي بهموم لطالما ركدت في بواطنه. ويقول أيضا:

فَعلاَ فُروعُ الأَيهُقانِ و أطفَلت بالجَهلتين ظِباؤُها ونِعامهَا

والعَينُ سَاكِنة عَلى أَطلائِها عُوذا تَأجل بِالقضاءِ بِهامُهَا

وَجلَا السُيول علَى الطُلولِ كأَنها زُبر تُجِد مُتونَها أَقلَامهَا[1]

خلق الشاعر في هذا الوصف الطللي استراتيجية بنائية تمثلت بالأساس أن الحياة داخل الأماكن المحدودة للطل تدل على الإنمحاء والفناء في ذلك الفضاء المحصور وصف الشاعر إقفار الأرض وخلوها من أهلها بعد رحيلهم منها، وكيف اتخذت منها قطعان البقر والظباءوهي حيوانات ولودة وفي نفس الوقت مسالمة وجميلة، تنتقل في مكان مفتوح لا وجود لأي عائق أمامها يحد من تحركاتها متحيرا مذهولا لما أحدثته الوديان بالخيام والمنازل مما أدى إلى إقفار وتعري الأرض وأنتج فناء المكان فناء الأنس والحياة فيه فأدى إلى توحشه وخرابه.

وتعد المرأة عنصرا جوهريا في الموقف الطللي، فالمرأة رحلت، وأدى رحيلها إلى إقفار الأرض والديار وخلوها، ويرى أن المرأة هي سيدة الطلل، والشعراء عندما يبكون على الطلل إنما يبكون على المرأة التي رحلت فنتج عن رحيلها خراب الديار؛إذ ما من امرأة حقيقة تقفر ديار قومها إذ رحلت بعدما كانت تضفي عليها الخصب والحياة[2]، فوقف عند موضع خليلته يبصرها مقفرة قد أثرت فيها الأودية لكثرة مرورها عليها حيث لم يبق منها إلا الأعواد التي كانت تقام عليها الخيام، وما يزال يستنطقها وهي تستعجم ولا تجيب، يقول:

[1]–المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص98.

[2]– ينظر، المرجع السابق، حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص156.

فَوَقَفتُ أَسأَلُهَا وَكَيف سُؤَالُنَا صُما خَوالِد مَايُبِينَ كَلاُمهَا[1]

فهو يطرح عليها الأسئلة بلسان الحال أو بلسان المقال ويسألها ليبعث فيها الروح والحياة من جديد ويخلصها ويستعيدها لقبضة الزمن ولو بشكل مؤقت. كما تؤدي الأطلال دورا مهما في تكوين فضاء القفر، فكانت عدو الشاعر الجاهلي فالخراب والدمار لهذا المكان يضفي عليه حسا مأساويا يكشف عن فقد الإنسان للاستقرار والوطن ويسود الحزن واليأس اللذان يجسدهما الشاعر. يقول لبيد بن ربيعة:

لِمَن طَلل تَضَمنه أَثَالُ فسِرحَة فَالمِران فالخيالُ

ذَكرتُ بِه الفوَارِس والنَدامَى فدمعُ العينِ سَحٌّ وانهِمالُ[2]

وقف الشاعر عند مجموعة من الأماكن(الأثل والسرحة والمرانة) وما أصابها من هدم وتخريب الذي طال الأبعاد المادية لهذا المكان فلم يبق منها إلا الآثار مغلف إحساسه بالحزن واليأس الذي صارت تتحكم فيه هذه الديار المقفرة فكلما وقف أمامها إلا وانهالت دموعه لهذه الأطلال يجسدها الشاعر بقوله دمع العين سح وانهمال لأنها ستصبح عرضة للنسيان والتلف والزوال.

أما ظاهرة الزوال فتتمثل في مظهرها الإنساني، وتتمحور حول الإنسان باعتداده بؤرة الاهتمام، إذ أن كل "ما يدور حول الإنسان عبر رحلته في الحياة يمثل وجها من وجوه الزوال والاندثار والتلاشي، فالتفرق بعد الاجتماع، والرحيل بعد الاستقرار، والشيخوخة بعد الشباب، تمثل معادلا موضوعيا للزوال، حيث تتحقق النظرة إلى الحياة بأنها رحلة عبر العمق الدلالي للرحيل الذي يحتقب معنى التفرق والتباعد والتلاشي"[3] حيث شكل الحديث عن الموت حتمية الزوال، فالجاهليون نظروا إلى الموت نظرة مأساوية عدمية يقول لبيد العامري:

قاَمت تَشكِي إلى المَوتِ مُجهِشَةوَقَد حملتُكِ سَبعا بَعدَ سبعينا

---

[1]– المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص92

[2]–ديوان لبيد بن ربيعة العامري، مكتبة محمد سعيد الحميد، دار صادر، بيروت، ص123

[3]– ينظر، شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة،1119، ط11 ص228

فان تُزَادي ثَلاثا تَبلغُي أمَــلا وفي الثَّلاثِ وفاء للثــمانِنا[1]

لقد وهن الشاعر وهو يشتكي حاله فهذه النظرة إلى الحياة والموت عند الشاعر الذي تجاوز عمره السبعين تَنُمُ عن عقلية فذة، ونظرة ثاقبة عبر فيها عن حتمية الموت والزوال، فالشيخوخة والهرم والعجز تشكل نذير الموت وعندما يشعر الإنسان بهذا العجز يصبح أشبه بالموتى وهو على قيد الحياة قال لبيد:

كَأني وقَد جَاوزت تِسعِين حِجَة خَلَعت بِها عَن مَنكَبِي رَدَائياَ

أَليس في مَائة قد عَاشها رجلُ وفِي تكاملِ عَشر بَعدهَا عُمُراَ

وَلَقد سَئِمت مِن الحَيَاةِ وَطُولِها وسُؤال النَاسِ كَيفَ لَبِيد[2]

يروي الشاعر ما قاله عنه الناس عندما تجاوز سن السبعين إن عمره قد طال ثم يبين سأمه من طول الحياة فمهما طال به العمر ليس أمامه سوى الهلاك والفناء فهذا هو الموت المعنوي وقد كان وقعه على نفس الشاعر شديدا لكثرة سؤال الناس وقد أشار الشاعر إلى ذلك إشارة صريحة.

كما يشكل الرحيل لونا من ألوان الزوال على المستوى الإنساني، ففي الرحيل يحدث البعد والغياب وتتحولالتجربة المادية فيالترحال تجربة شعورية تتحدث عن مأساة التغيير في الكون فكل شيءآل إلى الزوال وربما نظر الشاعر إلى الرحيل نظرته إلى الموت، فكلاهما يعني الغياب لذلك وقف الشاعر متسائلا أمام ارتحال الأحباب وتجرع مرارته نتيجة لضغط البيئة الطبيعية حينا، والبيئة الاجتماعية حينا أخر وقد صور لبيد تلك المعاناة، بقوله:

أَلَم تلملِم علَى الِّدمن الخَوَالِي * لِسلمَى بالَمذابِ فَالِقفَالِ**

فَجَنبِي صَوَارِ فِنعافِ قَوّ * خوالَِد مَا تحدَّثُ بالزَّوالِ [3]**

---

[1]- الديوان، ص15 2

[2]-الديوان، ص226،225.

[3]-الديوان، ص 103.

وقوف الشاعر بهذه الدمن ووَصْفه لها بالدمن بالخوالي إعراب عن سبب الآلام، لكنه حين عدل إلى الاستفهام بلفظة ألم كأنه كان يخفف من هذه الآلام التي سكنت نفسه لرحيل أصحاب هذه الأماكن عنها.

وعبر بهذه الصيغة ليكشف عن امتداد الخلو زمانا ومكانا ويذكر سلمى التي عمرت بتلك الأماكن التي خلتبعد منها–ففيها عبقها، وفيها طيب أثرها. ويحدد الأماكن (المذانب والقفال،وجنبي صوأر، ونِعاف قوّ)؛ لما لها من أثر في نفسه، لكنه في النهاية يقرر أنها (خوالد) طويلة البقاء، ولن يطرأ عليها شيء مجرد تحدث بزوالها والفعل تحدث فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه، وأصله (تتحدث)، ولهذا الحذف معناه الماثل في الزوال. يبدو(لبيد) بارعا في تصوير حالة الترحال وما تؤول إليه من التلاشي فضلا عن نقل الحالة النفسية والاضطراب الذي يكابده لمفارقة من يحب.

ومما يلحظ في صور الزوال لدى الشاعر تصويره الظعائن والظعينة هي كل بعير يوطأ للنساء، وسميت النساء ظعائن لأنهن يكن في الهوادج فيقال: "هي ظعينته وزوجه، وقعيدته وعرسه فالأصل في الظعينة المرأة عندما تكون في هودج على راحلة"[1] وهي جزء من المقطع الطللي لأنها تبدأ من مشاهد وداع الأحبة و القوم ووقوف الشاعر وحيدا يرقب هذه الظعن وقد تتابعت كأمواج البحر جماعات، جماعات فإن أول ما استوقف الشعراء من أنواع وداع المحبوبة في الشعر الجاهلي هو مشهد الظعائن الراحلة أو التبصر، قال لبيد في ذلك وأفاض في الوصف تلك الظعن:

شاقتكَ ظُعنُ الحيِّ حين تَحَمّلوُا فتنكسُوا قُطُنا تَصرِ خِيامُها

من كُل مَحفوفِ يُظلُّ عصيهُ زَوجُ علـيه كلَّةُ وَقِرَامُهَا

زُجلا كأن نِعَاج توضِحَ فوقَهَا وظباءُ وَجرَةَ عُطّـفا أرَامُهاَ

حُفِزَت وزَايَلَهَا السَّراب كأنـها أجزَاعُ بِيشةَ أثلُهَا ورُضَامُها

[1]– أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي: شرح المعلقات العشر، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، 1964، ص 78.

بل مَا تَذكَر مِن نُوَار وَقَد نَأت وَتَقَطَّعت أسَبابُها ورِمَامُهَا [1]

التجأ لبيد إلى حديث نفسه والتحدث عن ذلك الشوق والحنين الذي أهاجه ذلك الظعن يوم التحمل ورجع إلى وصفه في شطر البيت الأول حيث ذكر لنا ذلك القطين الذي لفته وأزعجه بصريره وكانت عليه نساء كالظباء فخالها كأنها تدخل كناسها. وكعادته في استعاراته هنا ملمح وصفي اختصر لبيد عباراته وألفاظه فقال: فتكنسوا قطنا تصر خيامها فقد حشد قدر رائع من المعاني الوصفية حسية ومعنوية. وألقى بظلاله على معان أخرى كأن الشاعر يصور عزلته وبعده عن الناس وهذا الضياع الذي وجد فيه نفسه. بل انه لا يشاهد ما رأى فقط بل يصف ما سمع من اضطراب الهوادج وصريرها وهي تشكو هذا الرحيل الذي لا رد له من سبيل، وهو غير قادر على تحمل الغياب والرحيل لذا واصل وصف ظعونه فتكلم عن لون ثياب الهوادج وأنواعها وثراء صاحبتها مدللا بذلك بذكر نوعية الثياب التي تستخدمها أما تخصيصه لظباء وجرة دلالة على أصالتها ووجه آخر في التشبيه لأن النساء الراحلة تكون أشبه بالظباء العاطفة على ولدها تمتلئ عيونها بماء الحنان وهذا الوصف الدقيق لظعينته يدل على شدة تأثر الشاعر بهذا الرحيل"فقد كان وقع الرحيل والغياب مؤلما في النفس لان لوعة الفراق والزوال أشبه إلى حد كبير بالموت"[2] ولعل الشاعر قد ظل واقفا يتأمل الظعن الراحلة من الصباح حتى الظهيرة بقوله زايلها السراب فقد ظل يتتبعها بأنظاره إلى أن زالت وأصبحت رؤيته لها كالأشجار ذلك الوادي أو حجارته ففي الرحيل يتلاشى المسافر عن عين محبيه وعن فضائه و هو لا يعلم إن كان له عودة أم لا.

[1]–المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص94.

[2]–المرجع السابق، مجد الدولة الأمير أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، المنازل والديار، ص187.

ثالثا: وصف الحيوانات والدلالات المتناقضة

الوصف في العصر الجاهلي أقوى فنون الشعر فللوصف صور ومظاهر كثيرة ومن أهمها وصف الحيوانات فقربوها وأعزوها ومنحوها عطفهم ورعايتهم، وكان وصفهم لها لكثرة ارتباطهم بها،لاسيما إذكان وصفا للطبيعة المتحركة "وهي كل ما يجري فيه ماء الحياة وينبض بالحركة من حيوان أنيس كالناقة والفرس، والكلب والمعز والغنم، أو حيوان أبد كالأسد والضبع والذئب"[1]فقد كان العرب في الصحراء يتوخَّوْن في الأرض التي ينزلونها الخصب والإنبات وملاءمة شروط الحياة، لذا كانوا يختارون أخصب الأماكن، وأغناها بالماء والكلأ لنزولهم ويبدوا لنا أن حيوانات الصحراء كانت كذلك فهي تألف هذه الأراضي وتوطن بها بعد أن يخليها أهلها ويرحلوا عنها فكأن لها غريزة تشبه غريزة الإنسان في البحث عن المكان الملائم لشروط حياتها وكان العرب يمرون في أسفارهم و رحلاتهم بالديار التي هجروها فيرون الحيوانات تسرح وترتع في الأماكن التي عمروها من قبل وقضوا فيها شطر من حياتهم يرونه عزيزا عليهم فيبعث فيهم روح الحياة من جديد[2].اهتم الشعراء الجاهليون بوصف الإبل واستأثرت بحبهم لأنها الحيوان المناسب للحياة في الصحراء، لتحملها وعورتها، ومقاومتها ظروفها، ومن هنا تردد ذكرها في الشعر حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ذلك.

كان لبيد بن ربيعة العامري من أقدر الشعراء على الوصف فقد وصف حيوانات البيئة مثل الناقة واستحوذت الناقة على وجدانه فوصفها أكثر من ذكرها في شعره لأنها مركبة رحلته، ومطية أهله وأنسيته في الصحراء وهي غذاؤه وطعامه ولباسه وترمز الناقة في الشعر القديم إلى الصراع من أجل الحياة.

فالناقةهيالأنثى من الإبل: وهو حيوان اسم واحد يقع على الجمع والذكر منها جمل، قال "الدميري": "الجمل الذكر من الإبل وإنما يسمى البعير جملا إذا أربع والأنثى ناقة" [3]

وهاهو"لبيد" يصف ناقته وقد شبهها بالسحابة يقول:

---

[1]– نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ط1 1970، ص49

[2]– عزة حسن: شعر الوقوف على الأطلال، مطبعة الترقى، دمشق، 1968، ص56

[3]–كمال الدين الدميري: حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر، بيروت، لبنان، د. ت، ط1، ص197.

فَلَهَا هُبَابُ فِـــي الزِّهَام كأَنها صَهبَاء حَفَّ مَع الجَنُوب جِهَامُهَا[1]

فلون ناقة لبيد يشبه السحابة الحمراء، هنا ربط الناقة بالسحابة التي أنزلت ماءهاهذا لا يخفى ما فيه دلالة على السرعة، يصفها فيقول: لونها أصهب أي فيه حمرة نراه يصفها في سيرها لمسافات بعيدةوهي تخط بأرجلها خطوات واسعة وقد أصابها الهزال وزال لحمها ولم يبق منها إلا ما يغطي رؤوس عظامها فتقطعت السيور التي تشد بها الرحال لكثرة الأسفار في الأراضي الصحراوية القاحلة، ومع ذلك فهيهزيلة لكن قوية سريعة في سيرها أشبه بسحابة تحملها رياح الجنوب وقال في بيت أخر:

جُنُوح دِفَاق عَندَلٍ ثُم افرَغَت لَهَا كِتَافُهَا فِي مَعَالٍ مِصعَدِ [2]

هنا يستخدم الشاعر صيغة المبالغة جنوح ليبين سرعة ناقته ونشاطها، فهي كثيرة الميلعن الطريق لأن الفضاء الذي تسير فيه غير مستوي وهذا راجع للتكوين الصحراويرغم ذلك فهيسريعة نشطة وعالية الكتفين، كبيرة الرأس لكرم أصلها وتعد الناقة وسيلة للتسلية وتمضية الهموم حيث تجدد في نفسه أمل الحياة، فالشاعر يتلهى بالسفر في الفيافي ويتناسى همومه بها، أو يهرب منها وهي بذلك أصبحت دواء لداء الهم والحزن[3] الذي يجده الشاعر من أسباب الهموم المتنوعة التي تعرض لها ولقد شارك لبيد في هذا المعنى يقول:

فَبتِلكَ إذاَ رَقَص اللَّوَامِعُ بالضُحى واجتَابَ أَردِية السَّرابِ اِكامـــُهَا

أفَضى الُلـبَانة لاَ أُفــرط رِيبَة أو أَن يلُوم بِحَاجة لِوَامُهـــا[4]

الناقة معوانه على بلوغ مأربه وإمضاء همومه لذلك قويت الرابطة بينهما حتى يكاد يناجيها بخلجات نفسه وتناجيه في تلك الأماكن المقفرة وهي تجوب الأرض جوبا قطعتها ومرت فيها وسط لمعان الشمس في الفضاء. وأن هذه الناقة تعينه على قصد من أراد مواصلته، وعلى ترك من أراد مصارمته وفي

[1]–المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص96

[2]–الديوان، ص48

[3]–ينظر، إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة، ط2، 1982، ص93

[4]–الديوان، ص174

ذلك دلالة على عمق الدفق الحياتي الذي أضفاه الشاعر على طلله مما يعزز تحقيق وجوده فناقة لبيد فيها حركة وحياة وقوة.

وصف لبيدأيضا الناقة فشبهها تارة بالثور، وتارة بحمار عراقي يقول لبيد:

أَذَلِكَ أُم عِراَقِي شَتِيم أَرّن عَلى نَحائِصَ كَالمَقالَي

نَفَى جِحَاشَها بجَمادِ قُو خَلِيط مَا يُلامُ علَى الزيالِ[1]

هنا يشبه الشاعر ناقته تارة بالثور وتارة بحمار وحشي وهو"حيوان معروف من ذوات الأربع مخطط يشبه الحصان والوحش هو حيوان البر، ويقال لأنثى من حمر الوحش: أتان وللذكر حمار"[2]. هذا الحمار الوحشي منسوب إلى العراق وهذا يعكس الحيرة في نفسه على عدم القدرة على التمييز بين الطرفين في تلك الأرض الواسعة الغليظة في الارتفاع فقال يتساءل: أذلك الثور أم حمار عراقي شتيم أي كريه الوجه صاح على أتن ليسمعهن أو بهن أولاد كالعصا التي يلعب بها الصبيان وهذا يدل على شدة إعجابه بقوة ناقته ثم يقول إن الحمار يبعد جحاش الأتن عنها في الأماكن الغليظة المرتفعة من بلد قو وهو لا يلام، هنا بالغ الحمار الوحشي في الحرص على التملك الجغرافي ، لعدم وجود فحل معه يخلو بالأتن، فهو لا يترك لها مجالا للالتقاء بغيره من الفحول لان الذكر الذي يملك أرضا وإناثا يعتني كل العناية بصيانة ملكه يقول:

وَأَمكَنهَا مِن الصَلِبينَ حَتَى تَبينَتِ المَخاضَ مِن الحِيَالِ

شُهورُ الصَّيف واعتذَرَت عَلِيه نِطاف الَّشيطين مِن السِمَالِ[3]

---

[1]–الديوان، ص106

[2]–زكريا بن محمد بن محمود القزويني: عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1،بيروت، لبنان، 2000،ص305.

[3]–الديوان، ص107

معنى البيتين أن الحمار أمكنها أي كدها بحافره بتلك الأرض الغليظة المنقادة المرتفعة حتى اعتزلت التي حملت والتي لم تحمل طيلة شهور الضيف ويبدو أن حمل الأتان إيحاء بالنهاية السعيدة للرحلة ورمز لخصب الحياة والراحة التي يجدها حمار الوحش وأتانه.فهي تمثل صورة الحياة بكل أبعادها بما تحمله من صراعات وتناقضات.

برع لبيد وأجاد وتفوق في وصف الناقة بغيرها من الحيوانات وكائنات الطبيعة الأخرى حيث وظف كلمات قليلة لمعاني جليلة مختصرة تعطي معنا وافرا بأقل الألفاظ، كيف لا وقد تحدث في عن ناقته في جل أبيات قصيدته فأنت تراه قد وصل إليها وصولا يسيرا لا تكلف فيه ولا تصنع ولا جهد فيه ولا مشقة.فهي التي بعثت في نفسه روح الحياة وجددت فيه الأمل.كما أفاض في وصف الفرس نظرا لملاءمتها للمنطقة الجغرافية والحياة الرعوية والظروف المناخية والبيئية الصعبة فواحده الخيل والجمع أفراس، والذكر والأنثى في ذلك سواء، وأصله التأنيث قال وهو اسم يقع على الذكر والأنثى ولا يقال للأنثى فرسة وتصغير الفرس فريس وان أردت الأنثى خاصة لم تقل إلا فريسة بالهاء ولفظها مشتق من الافتراس، لأنها تفترس الأرض بسرعة مشيها[1]

احتل الفرس مكانة كبيرة في حياة الجاهلي؛ فقد اعتمد عليه في مأكله وملبسه وفي حله و ترحاله، واستخدمه علما لأبنائه وقُدِّر غناه بما يملكه منه؛ ذلك أن اقتناء بعضها يعد من مظهرا من مظاهر الغنى لقد عشق الجاهلي الفروسية ونعلم أن الفروسية مشتقة من الفرس وهي وسيلتها[2] وتكرار هذا الحيوان وعالمه في شعر لبيد حمل رؤيا ذاتية ألحت على الشاعر إذ أشبع بها نتيجة قناعته بحتمية الزوال، وغدا معادلا للذات المأزومةفقد كان لبيد بن ربيعة يتخذ منه وسيلة تساعده في أمور شتى كان يمضي أياما كثيرة على ظهورها في مجاهل الصحراء وفي خوض الحروب ومواجهة الأعداء.

وصف لبيد فرسه الذي يخوض به الحروب والمعارك قائلا:

---

[1]–المرجع السابق، كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ص133.

[2]–المرجع نفسه، ص109.

وَلَقَد حَمِيت الحَّي تَحَمل شَكّتي فُرط وِشَاحِي إِذ غَدَوتَ لِجَامُهَا [1]

فيصفه بأنه سريع وخفيف ويحمل عليه سلاحه في تلك الأماكن القاحلة لحماية قبيلته، فالطللكان مكانا مكونا ممتلئا بالحضور الإنساني والمشاركة الوجدانية غير أن الجدب أحدث انقلابا فأحال الطلل إلى فراغ موحش فهويترك فرسه في لجام دائم ليكون متهيئا لركوبه عند الحاجة إليه.

ويقول أيضا:

رَقعتُها طَرَدَ النِعامِ وَشَلَـة حَتى إِذا سَحِنت وخفَّ عِظامُهَا عَلِقت

رِحالَتهاَ وأُسبِل نَحرُها وابّتل مِن زَبدِ الحَميم حِزامُهَا[2]

في هذين البيتين يصف الشاعر فرسه الذي أنهكته الأسفار تقطع الفيافي والقفار بكل نشاط وحيوية السريع مستخدما التضعيف للتوكيد "رفعتها" ليبين شدة سرعة فرسه مشبها إياهبالنعام عند عدوه وللاضطراب حركته عند العدو يستطيع الراكب الاستقرار على متنه وتؤثر السرعة في الفرسفيبتل نحره وحزامه عرقا من الجو السائد في الصحراء.

ولقد أدت الأمطار إلى أمراع وخصب الديار فبدأت الحياة تدب في عروقها شيئا فشيئا بعدما كانت الأرض التي تسكنها الحيوانات جدباء ومقفرة فاجتذب هذا الخصب الظباء والنعام وبقر الوحش يقول الشاعر:

زُجلَا كَان النَّعاج تُوضَحَ فَوقَهَا وِظِباءُ وَجرة عَطفا أَرَامُهَا

حفزت وزَايَلَهَا الشَّراب كَأَنَها أَجزَاَع بِيشة أثَلُها ورِضَامُهَا[3]

---

[1]– المرجع السابق، الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص105

[2]– المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص106.

[3]–المرجع نفسه، ص93

من بين تلك المظاهر الحيوانات التي تبعث الحياة في الطلل الخرب هذه الحيوانات جماعات من النعاج وهي إناث بقر الوحش تحملوا فوق الإبل شبه النساء في خشن الأعين والمشي بها، أو بظباء وجرة لان عيونها أحسن ما تكون في هذه الحال لكثرة مائها في منعطف الوادي بعثت الحياة إلى تلك الأماكن من جديد، فقد تقهقرت الحضارة الإنسانية أمام القوى الطبيعية على الرغم من تحرك دائرة الزمان على هذا المكان إلا أن طلل لبيد ظل شامخا يحمل في تضاعيفه الخلود والبقاء.

رابعا:الدعاء للطلل بالسقيا

من المعروف أن البيئة الطبيعية لجزيرة العرب هي بيئة صحراوية جافة، ذلك أنه على الرغم من كون البحر يحيط به من ثلاث جهات إلا أن هذه المساحات المائية لم تستطع التقليل من حدة ارتفاع الحرارة في تلك الأجزاء الواسعة النادرة الأمطار، حيث نظر الشعراء الجاهليون إلى المطر المنثور من عالم الغيب بإكبار وتقديس فرأوا فيه مادة الحياة التي خلق منها كل شيء ومنه قوله تعالى:(وَ جَعَلنَا مِن المَاءِ كُلَّ شَيء حَي[1] واغرموا بمراقبته وملاحظته، فسهروا الليل وأرقوا ودعوا فقد كان من الضروري أن يتوجه الإنسان بالعبادة والشعائر نحو الآلهة المتحكمة في هذه الظاهرة به و رأوا فيه سرا خفيا وقوة عظمى تتلقاه الحناجر العطشى بشغف وحب والصحراء القاحلة تستغيث به ليدفع عنها قحلها وعقمها، فتهتز نشوة وتستقبله كبكرعروب أحبت بعلها فاحتضنته[2]. إن فكرة المطر في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر وتكاد المرأة أن تكون أهم العناصر التي تطبع صورته الطللية عندما يتذكر المحبوبة فيحاكيها ويدعو لها بالسقيا طمعا في الخروج من دائرة الجدب والولوج إلى دائرة الخصب يقول لبيد العامري:

وَغيثٍ بِدَكدك يَزيــنُ وِهادهُ نَبَات كُوشِــي العـبَقَرِي المُخَلبُ أَرَيت

علَيه كُل وَطفَاء جُونة هُتوفَ مَتى يَنزلُ لَهَا الوَّبل تَكسَبُ[3]

نلحظ أن الشاعر قد ربط بين الغيث والمرأة والدكداك الذي يعني الأرض ففي هذه الأرض تكون السحابة قريبة إذا ذهب الوبل سكبت فتأتي بمطر بعد مطر دلالة على الحياة واستمرارها والاستقرار في المكان والارتباط به،المرأة والمطر شيئان متصلان متحدان في ضميره فالشاعر يبكي الطلل ويبكي رحيلها ويدعو لديارها.

[1]–سورة الأنبياء، أية30.

[2]–أنور أبو سويلم: المطر في الشعر الجاهلي، دار عمان، الأردن،ط1، 1987، ص54.

[3]–الديوان، ص29.

يقول أيضا:

كأن ثِقَال المُزن بينَ تَضارُع وِشامة بركَ مِن جُذام لَبِيجِ فَذلِك

سُقيا أم عُمرو فَإنَني لِمَا بَذلت مِن سِيبهَا لَبِهيِج[1]

فالبرق يبعث في الرجاء أصواتا كأنها فحل وحول الشاعر إبل مجتمعه فيضيء السحاب الكثيف مبشرا بالسقيا التي تنتظرها الحبيبة لتخضر الأرض ويزهو الزرع وتبزغ بعد ذلك الشمس لان أطلالها انطمست واندثرت ففكرة المطر يتحول معها ثغر الحبيبة الباسم إلى نبع للخير المطلق ومصدر لماء الحياة نحس من خلاله أن الشاعر لم يكن يتغزل وإنما كان يعبر عن رغبته استقبال المطر لان المرأة تمنح من ثغرها خصب الحياة ونمائها ورحيلها يعني القحل والمحل والشاعر يريد هذه السقيا، لذلك كان دائما رضاب المرأة مطرا صافيا باردا.

وقد نرى في الوقفة الطللية انه إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء واشتد الجدب وجاء العذاب وتلظى حر الصحراء حتى تكاد تزهق الأنفس من سعيرها وقد ينحبس الغيث سنوات متتالية و تنكشف السماء زمنا طويلا عن ورقة رتيبة إلا من سحائب كالقطن فقد أدت فكرة الجدب إلى تعظيم المطر قال الجاحظ :"ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها والنجوم والثوابت فيها و ما يسير منها مجتمعا"[2]فقد ارتبطت به دوما حياة العرب ارتباطا وثيقا لأن المأساة قد طالت أرجاء المكان بغياب أهم مورد طبيعي ألا وهو الماءفضجوا بالدعاء والتضرع وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا فهم يطلبون الغيث أينما حلوا وقد قال لبيد:

ولَم يتَذَكر مِن بَقِيةِ عَهدِه مِن الحَوضِ وَالسُؤبانِ إلا صَلَاصلاَ

[1]–الديوان، ص224

[2]–المرجع السابق، أنور أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، ص ص21– 22

فَأَجمادِ ذِي رَقد فَأَكنَافُ ثَادِقِ فَصَارة يُوَفَى فَوقهَا فَالاَعَابِلَا[1]

العهد هو أول المطر فالشاعر نسى ولم يتذكره ولم يتذكر مواضع السؤبان والحوض وجبلي رقد وصارة لان الماء كان هم الجاهلي فإن خوفه من الجدب جعل حياته يطبعها نوع خاص من الحرص المبالغ فيه، فهو يسعى وراء الماء، ويبذل كل ما أمكنه في سبيل الاستسقاء منه بأي شكل من الأشكال [2] ويتخذ ما أتيح له من أسباب للمحافظة عليه بأي وجه من الوجوه.

كثيرا ما يكون للمطر تعبيرا جماعيا عن الرغبة في الطهر، والنقاء، والصفاء والقداسة وهي رغبة تكون مستقلة عن الوعي الفردي الذاتي وليست وليدة العلم والإرادة الواعية،وإنما هي وليدة الحدس الجماعي؛ لأن المطر ظل يكتسي أهمية كبيرة في حياة الجاهليينفإذا اندثر الماء وزال عن المكان يضطر إلى البحث عن مواقع أكثر خصبا وأوفر ماء فقطب المكان والماء دلالتان حفظهما الشعراء الذين بلغ إعزازهم له مبلغا عظيما حتى أصبح غاية دعائهم المرجو والمشكور فكان دعاؤهم: سقى الله فلانا الغيث،وأسقاهم وطلبوا له السقيا وهم يفعلون ذلك لاعتقادهم إن للماء قوة قادرة على منح البقاء والتجدد يقول لبيد:

رُزِقتُ مَرَابِيع النُّجومِ وِصابُهَا وَدقٌ الرَّواعِد جُودُهَا فَرِهامُهَا [3]
مِن كُلِ سَارِية وَغَادِ مُدجِنِ وَعشِية مُتجاوِبِ إِرزَامُهَا

يروي مرابيع السحاب بقوله رزقت أي دعا لها فرزقها الله تبارك وتعالى مرابيع السحاب وهو أول ما يكون من مطر الربيع وهي التي من عادتها أن تنتج من أول النتاج وقوله وصابها أي نزل عليها الودق من المطر أي الداني من الأرض. والجود والرهام تابعان للودق ثم يدجن سائرا في الليل ويرزم ناقته إذا حنّت فأراد لرعدها رزمة وهو حنينها لان الصحراء الظامئة لا يطفئ عطشها إلا المطر، والحناجر الجافة لا ترتوي إلا بدرَّ الناقة فهو الخلاص من الجفاف والعطش وطريق للتقرب إلى الله. ثم يردف بمفردات

[1]–الديوان، ص 114

[2]–ينظر، المرجع السابق، نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص39

[3]–الديوان، ص110

الخصب والنماء والانبعاث ورموز المواجهة وعناصر الحياة، فكان ارتفاع فروع الأيقهان "النبات البري" دليلا على البعث والنماء.

إن ارتباط المطر في الوقفة الطللية في فكر كثير من شعراء العصر الجاهلي بالهدم وطمس المكان جعل وظيفته دالة على تجلية حقيقة موت الإنسان فمن المعتقدات التي لها علاقة بالاستمطار الدعاء بالسقيا للقبور[1] ويرجعها أحد الدارسين إلى بقايا تراث قديم كان أصلا طقسا سحريا يمارس على عظام الموتى فهم يعتقدون أن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر قال لبيد:

فَإن تَدعُو بالسُقيا وبالعَفوِ السَماءُ والأَمرُ يَبقَى عَلى الأَصلِ

والأَرضُ تَحتَهُم مِهادَا رَاسِيا ثُبِتت خَوَالِقُهَا بِصُم الجُندلِ[2]

يوضح الشاعر في الأبيات تصوره للزمن، وهو في الجوهر والنهاية تصور يمثل وجود القبر، وهذه الرؤى للزمن والواقع والموت والحياة رؤى تمثل الثنائيات الضدية التي تسهم في نمو القصيدة وخلق نسيج لغوي يتشكل في سياق الرؤيا للواقع.

لقد تحولت الصورة الحزينة للطلل بفعل المطر إلى صورة مفعمة بالحياة والحيوية إذ ألحت فكرة السقيا على ذهن الشاعر، لتوحي بأن المطر في الخيال العربي هزة كونية كبرى وقوة فاعلة قادرة على الخلق وقادرة على التغيير وتتجلى هذه القدرة في قهر غرام الزمن، وبعثهالحياة من الجمادلأن اللحظة الطللية التي أربكت الشاعر لم تدم طويلا بعدما كان الفاصل الزمني بين الدعاء لنزول المطر ونتيجة هذا النزول فاصلا دقيقا وضيقا للغاية.

من خلال ما سبق فالفضاء في المقطع الطللي تزدحم فيه العواطف والذكريات فالطلل هو المكان بعينه وحضور المكان ليس حضورا مجردا وإنما هو حضور لقيم أخرى تتعلق بالإنسان والحيوان والحياة والموت الذي يمثل صورة أولية للحزن واليأس والفناء والرحيل والزوال فلم يبق إلا تلك الآثار تسبح في هذا الفضاء فتزيده حزنا وأسى ثم يعكس هذا الدمار والقفر بخروجه من هذه الحالة وعدم استسلامه وينادي باستمرارية الحياة وإعادة بعثها من جديد وولوج دائرة الخصب بالدعاء لهذا الطلل بالسقيا.

---

[1]– ينظر، المرجع السابق، أنور أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، ص133

[2]–الديوان، ص170

الفصل الثاني:

الفضاء من خلال الرحلة الصدراوية

الفصل الثاني:
الفضاء من خلال الرحلة الصحراوية

أولا: خطر الصحراء.

ثانيا: فقدان الابن من خلال سورة البقرة الوحشية.

ثالثا: وصف الصحراء في الليل.

رابعا: طلوع الفجر وتحقيق النصر.

الفصل الثاني الفضاء من خلال الرحلة الصحراوية

في هذا الفصل من البحثسأتطرق إلى الفضاء من خلال الرحلة الصحراوية عن طريق إبراز مكونات ومؤثرات الصحراء وطفوح مفرداتها على ثنايا شعر لبيد بن ربيعة.

أولا: خطر الصحراء

اتسع معجم اللغة العربية بمفردات وألفاظ ومعاني للصحراء، كاتساع فضائها الرَّحب وقد وردت ألفاظ ومعاني ودلالات متنوعة ومتعددة تدل على هذه البيئة؛ فكلمة صَحَرَ مكونة من الصاد والحاء والراء؛ والأصل في بنية الكلمة أنّها تدل على أصلين أحدهما البارز من الأرض والآخر لون من الألوان ويقال: أصحَر القوم إذا برزوا الى الصحراء فلا يسترهم شيء؛ و أصحر الرجل نزل للصحراء، وبرز إلى فضاء واسع لا يواريه شيء والأصل الآخر الصُّحرة وهي لون ابيض مُشرب بحمرة[1]؛ كما هي أيضا الأرض المستوية في لين وغلظ دون القف، وقيل هي الفضاء الواسع والصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الجرداء التي ليس عليها لا شجر ولا تلال ولا جبال فهي ملساء، ويقال صحراء بينة الصّحر والصُّحرة، واِصحَرَّ المكان إذا اتّسع والجمع صحراوات وصحارٍ؛ وأيٍّ كانت التعريفات نجدها تتفق على معنىً واحد هو أنّ الصحراء هي فضاء متسع ممتد قليل الإمطار لا أنهار فيه ولا مياه و لا عيون جارية ممتدة متفرقٌ عشبها وشجرها.

وبهذا المعنى وصفت الطبيعة الصحراوية في الأدب العربي و ما اشتملت عليه من رموز ودلالات فالصحراء كما سبق وذكرنا هي الفضاء الرحب الذي يمنح للعقل سعةً للتفكير والتدبير والتأمل والنضوج فحياة الصحراء اتسمت بعدد من السمات التي ميزتها عن حياة الحضر، فالبيئة الصحراوية كان لها أثرها ولونها بل وأنها أثرت في حياة الشعراء وتناولوها في أشعارهم ليعبّروا من خلالها عن مواقفهم وحياتهم

[1]– معجم المقاييس، مادة صحر، ص333.

وسلوكياتهم وتطلعاتهم وحتّى خيالاتهم وأحلامهم فملأت الصحراء قلب الشاعر ونفسه وكيانه وأعطته حضور البديهة والذكاء فتغنى بها وأجاد في وصفها والتعبير عن مكنوناتها وظواهرها؛ إلاَّ أنّ هذا لا يعني البتّة أنّ الحياة بها كانت بسيطة وسهلة، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والأخطار والمؤذيات إذ فيها عدد غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق و المهاوي والرياح السّموم، وفيها ظلمات الليل الحالك المخيف التي كانت تلقى في روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعالى والجن والغيلان وخلال ذلك الزمن اتّصف العرب بصفات متعددة كتربص بعضهم ببعض؛ إذ كانت حياتهم حياة حربية دامية"[1] ؛ ذلك أنّهم عرفوا الحرب وقدسوها وآمنوا بها كوسيلة تحقق الأهداف مثل الصراع على الكلأ والماء وتتبع مساقط الغيث والأراضي الخصبة وغيرها من المخاطر الذي كانوا يخوضونها ضد الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء وصوّر ذلك لبيد فقال:

وَمُشْـــعِلَةً رَهْـــوًا كَـــأنَّ جِيَـــادَها ... حَمَامٌ تُبَاري بِالعَشيِّ سَوَافِلاَ

لَهُـــم فَخمـــةٌ فِيهَـــا الحَدِيـــدُ كَثِيفـــــةٌ ... تَرَى البِيضَ فِي أعناقِهِم والَمعَابِلاَ

ضَـــربنَا سَـــراةُ القَـــوم حَتـــى تَوجَّهُـــوا ... سِراعًا وقد بلَّ النَّجِيعُ المَحَامِلا

نُـــؤدِي العظـــيمَ للجِـــوار ونَبتَنِـــــي ... فَعَالاً وقد نُنكي العَدُوَّ المَساجِلاَ

لَنَـــا سُـــنَّةٌ عاديّـــةٌ نَقْتَـــدِي بـــــهَا ... وَسَنَّتْ لأُخـرانا وَفاءً ونائـــلاَ

يُذَبْـــذَبُ أقوامًـــا يريـــدُون هَدْمهَـــا ... نِيافٌ يَبُذُّ الوَاســعَ المُتطاولاَ

صَـــبَرنا لَهُـــمْ فـــي كـــلِّ يَـــوْمٍ عَظِيمـــةٌ ... بأَسيَافنا حتَّى عَلَوْنَا الـــمَنَاقِلاَ

وَإِنْ تَســـأَلوا عَـــنهُم لَـــدى كُـــلِّ غَـــارَةٍ ... فقد يُنبَّأ الأخبارَ مَن كانَ سَائِلاَ [2])

---

[1]–المرجع السابق، شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، ص78.

[2]– الديوان، ص122

فهنا نلاحظ أنّ لبيد صوّر بيئته الصحراوية حيث وصف الكثير من ظواهرها ووظفها في شعره كونه يعتبرها حدثا وجب عليه أن يرصده عن طريق الوصف التقريري أو عن طريق الخيال الإبداعي؛ فلا يخفى على أحد أنّ جزيرة العرب تعتبر أكثر البلاد جفافا وحرارة كما كان يدور فيها عدد من المعارك والغارات بين القبائل ولأنّ الشاعر بطبعه شديد الاعتزاز ببيئته ولا يهنأ إذا اعتدى شخص على أحد أفرادها إلا ويسعى لينال عليه بأكثر مما فعل "فكان على البدوي أن يعمق معرفته ببيئة الصحراء ومخاطرهاالتي تحدق به ليعزز فرصه في البقاء و الوجود"[1]؛ لأنّ الحروب هي إحدى مقوّمات العيش في الصحراء وبيئتها بكل مكوناتها؛ فلا تقتصر الحياة في الصحراء على مخاطر الغزوات والحروب، وإنما كذلك لابد للإنسان أن يحمي نفسه من حرارة الصيف وبرودة الشتاء ومن الوديان والسيول الجارفة في مواسم الأمطار يصف لبيد بن ربيعة العامري يومًا باردا في الصحراء فيقول:

وَيـــــوْمٍ هَـــــوادِي أَمـــــرِهِ لشـــــماله ... يُهتّك أخطَالَ الطِّرافِ المُطَنَّبِ

يُنـــيخُ المَخَـــاضَ البُـــرْكَ والشَّـــمسُ حيَّـــةٌ ... إذَا ذُكِّيَتْ نِيرانـــهَا لَمْ تلْتَهِبْ

ذَعَـــــرْتُ قِـــلاصَ الّـــثَّلجِ تَحـــت ظِلاَلِـــه ... بِمثنَى الأَيَادِي والمَنيحِ المُعَّقِبِ [2]

فالفضاء الواسع للصحراء جعل من طقس الشتاء فيها يغطي كل مساحاتها فكان البرد شديدا ويبيّن القصيد هنا أنّه من علامات الشتاء فيها أن تصبح أياديهم سوداء من نار التدفئة فإذا جاء الشتاء واشتدّ البرد غشي الناس النيران فاِسودت أناملهم ومعاصمهم من الوقود؛ فقد كانت معاناة العربي من الطبيعة عظيمة سواء في شتائها أو في صيفها وفي يسرها كما في عسرها.

[1]– سعد العبد الله الصويان: الصحراء العربية (ثقافتها وشعرها عبر العصور قراءة أنثروبولوجية)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2010،ص621.

[2]– الديوان، ص31

أمّا حياة من في الصحراء فقد اتسمت بظاهرة الحِّل والتِّرحال؛ فرحلة الشاعر العربي في الصحراء مظهر من مظاهر الشجاعة والقوة عندهم؛ فهي تعبّر عن مدى قوّته ومقدرته على مواجهة الأهوال والنصب وتكبُّد المشاق وبحكم حركيّته وترحاله الذي لا ينقطع فقد كان قوي التكوين، حديد البصر، سريع العدو جاف العود، يتنبأ بالخطر في تلك الربوع الواسعة؛ لأنّه على دراية واسعة بأسرار الصحراء التي لو لم يعرفها كما يعرف راحة يده لظل وتاه فيها فهي قفار جرداء مهلكة ومفازات موحشة مسكونة بالأهوالومحفوفة بالمخاطر[1]؛ ومن ذلكلبيد هنا يصف المكان الذي زاره حيث قطع مسافات طويلة جوف الصحراء الموحشة يقول:

فَعَلَّفْتهَا وَهْمًا كأنَّ نحيزهُ شَقَائِقُ نسَّاجَ يَؤُمُّ المَنَاهِلاَ

فَعَدّيْتُهَا فِيهِ تُبَارِي المَنَاهِلاَ تُنَازِعُ أَطْرافَ الإِكْمَامِ النَّقَائِلاَ

مُنيفًا كَسَحْلِ الهَاجريِّ تضُمُّهُ إِكَامُ وَيَعرُري النِّجادِ الغَوائِلَا[2]

يصوّر الشاعرمكانًا وهو الطريق الممتد الذي يسلكه بناقته وبرفقته طيف الحبيبة حتّى أهلكه ويشير إلى أنّ هذا الطريق ممتد وواسع فهو شبيه بالثوب الأبيض الهاجري بمعنى ينسبه للهجر فيذهب بين الآكام وهي التلال الصغيرة ثم يرتفع فوق النجاد وهي الطرق المرتفعة قليلا من الأرض فيبصر الغيلان والوحوش التي تعترض طريقه وهو في رحلة اجتيازه الصحاري وكيف اجتازها وهو مستمر في رحلته "ما يمكن للإنسان من النجاح في هذه المواجهة الوجودية مع وحوش الصحراء هو امتلاكه للطموح الذي يهبه الصبر والعزيمة والإصرار"[3].

---

[1]– المرجع السابق، سعد العبد الله الصويان،الصحراء العربية (ثقافتها وشعرها عبر العصور قراءة أنثروبولوجية)، ص631

[2]– الديوان، ص135

[3]–عبد الله الرازقي: انعكاس الطبيعة الصحراوية على حياة الإنسان الجاهلي من الناحية الاجتماعية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد الأول، العدد4، ص456.

إنّ تنـوّع مجـالات الحياةوتشـعّب نواحيهـا جعل الكثيـر مـن الشـعراء يجتهـدون ليكتسـبواالمزيد مـن المعـارف والخبـرات الحياتيـة ليجـابهوا مـن خلالهـا المخـاطر ويتحصّـلوا علـىالعيش الكـريم ولـو كـان ذلـك محصـورًا فـي تحرُّكهم الدائم والطويل بين شعاب الصـحراء والوقوف علـى الكثيـر مـن تفاصـيلها وأشـيائها، ومعرفة مكنوناتها وخفاياها وكذلك مسبباتها ووصـف تحرّكاتها ونتائجها؛ فأتوا بـالكثير من التجارب والتي منها ما صاغوه الشعراءليعبّروا من خلالـه عن ظروفهم الحياتيـة فـي ماديتها فيعتاد الفرد عبرها الصـحراء ويعتاد مجابهـة ومواجهـة الحياة منذ الصـغرّ والتوافق معها و ازدراء كل مـا من شـأنه أن يبعد عنـه العنـف والخطر.

ثانيا: فقدان الابن من خلال صورة البقرة الوحشية

وعوثةالصحراء وخشونة العيش وطبيعة الجو طبع الشعر الجاهلي بسمات خاصة أهمها تمثيل الطبيعة فتعلق الشاعر بالبيئة وكانت مادة شعره وتجلى إبداع الشاعر بوصفه للحيوان فمن المعروف أن الأماكن الخالية من الصحراء هي التي تعيش فيها الحيوانات كبقر الوحش وهو المها جمع مهاة وهي البقرة الوحشية والجمع مهوات وهي أشبه شيء بالمعز الأهلية وقرونها صلبة جدا.قال "القزويني": "بقر الوحش له قرن عظيم ذو شعب كل سنة تنبت له شعبة زائدة، وإذا سمع الغناء أو صوت الملاهي يصغي إليها ولا يحذر حينئذ من النشاب لشدة التذاذه بها وإذا رفع أذنه يسمع الأصوات فإذا رخاها لا يسمع شيئا؛ وإذا مرض يأكل الحيات والأفاعي يزول مرضه ويأكل الأفعى من ذنبها وإذا وصل إلى الرأس يرميها"[1]

أما صغار بقر الوحش فهي البائهم أو السخال كما ذكر "الدميري" قال: "الصغار من أولاد الغنم أو البقر الوحشي ساعة تضعه أمها ذكرا كان أم أنثى تسمى سخال ثم هي بهمة"[2]

وصف البقر الوحشي شائع في الأدب الجاهلي وتعد معلقة لبيد نموذجا لورودها فقد أتى بقصة حزينة تشمل على عدد من الصور فقد صوّر البقرة الوحشية التي تبحث عن ابنها المسبوع في مجاهل الصحراء بين الجبال والتلال ووسط المراعي وفي مختلف الدروب، قال لبيد:

أفَتلـــــك أُم وحشِـــــية مســـــبُوعَة ... خُـــذلت وهَاديـــة الصّـــوار قِوامُهَـــا
خنسَـــاء ضَـــيعت الفَريـــر فلَـــم يـــرم ... عُـــرض الشـــقائق طوفُهـــا وبِغامُهَـــا
لمُعفـــرِ فهـــد تَنَـــازَع شِـــلوة ... غُـــبس كـــواسِ لا يُمـــن طعامُهـــا
صَـــادفنّ منهـــا غِـــرة فأصـــبنها ... إن المنَايَـــا لا تَطِـــيش ســـهامُهَا[3]

[1]– المرجع السابق، القزويني، عجائب وغرائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ص309.

[2]–المرجع السابق، كمال الدين محمد بن موسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ص 153.

[3]– المرجع السابق، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص99

في هذا الشاهد يصف لبيد متسائلاً ويقول أتلك الأتان تشبه ناقته أم أنّها بقرة وحشية تركت ولدها سهوًا وذهبت فوجدت أن السباع اِفترسته فهي تركت أمر القوامة للفحل الذي يتقدّم القطيع وهو متفاجئ بضياع ولد البقرة ثم وصف تلك البقرة في شكلها وعواطف الفقد والأمومة تجاه الابن فقد أخذت تطوف وتصيح بين الشقائق وهي صورة تعتمد على الحركة والصوت وتصوّر حزن البقرة وقال بأنها خنساء أي في أنفها تأخر، وهي عادت البقر كلهم خنّس وحدد سن ولدها بأنه فرير أي في عمر الفطام[1]؛ فحيال فقدان الابن ظلت البقرة تبحث عنه في منطقة صلبة بين رمليتين، وهي تصدر صوتا رقيقا حنينًا تنادي من خلاله ابنها المفقود، كما صف لونه الأبيض الذي عفر بالتراب لأنّ السباع عندما وجدته مزّقته و أخذت تتجاذب في هذا الصغير حتى قطعته إلى أشلاء وكان لون السباع كالرماد فهي في رخاء دائم طعامها غير منقطع كما أنّها قوية قادرة على الجري والاقتناص وقد وجدت الفرصة سانحة في غفلة تلك البقرة فاغتنمتها والموت لا مخلص ولا مفر منه إذا حضر فاستعار لبيد السهام للمنية واستعار لفظ الطيش للأخطاء إذا أخطأ الهدف، ثم يبين بعد ذلك حالة البقرة في الليلة الماطرة ويقول:

اَتــت وأســبَل واَكــف مِــن دِيمــة ... يَــروي الخَمائــل دَائمــا تَســجامها

يعلُــو طرِيقــة مَتنهــا مُتواتــر ... فــي لِيلــة كُفــر النُّجــوم غَمامُهَــا

تَجتــافُ أَصــلا قَالصــا مُتنبــذا ... بعُجــوب أنقــاءِ يَميــل هُيامُهَــا[2]

في هذا الشاهد نجد أنّ وصف البقرة اقترن في الشعر الجاهلي بالمطر لأنّ المطر يزيد المصاعب على تلك البقرة الثكلى التي فجعت بولدها ومما زادها حزنًا تلك الأشلاء التي وجدتها من ذلك الابن المفقود ورسم الشاعر صورة قلق تلك البقرة وشدّة حزنها وفجيعتها بولدها حيث أنها أخذت تطوف بتلك المنطقة جانب شجرة من شجر الصحراء التي تركت فيها ابنها علَّها تعثر عليه وعادةً قلب الأم لا يعرف

[1]–ينظر، محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1994،ص174.

[2]– المرجع نفسه، ص100

اليأس في البحث عن الابن الذي غاب حتى أن أمه من شدة حزنها عليه قد ذهب اللبن من ضرعها ويبس ثم يصور استمرار بحثها عن ولدها وتعرضها لأخطار، فيقول:

وتُضِـيئ فِـي وجـهِ الظـلامِ مُنيـرة كجمَانـــة البَحـــري سَـــــل نِظامـــا
حتَـى إذا انحَسَـر الظَـلامُ وأَسـفَرَت بَكـــرت تـــزِل عـــنِ الثَـــرى أَزلاُمـــها
عَلهـت تَـردد فـي نِهَـار صُـعائد سَـــبعا تُؤامـــا كَـــاملا أَيامُهـــا
حتـــى إذا يئســـت وأســـحق خـــالق لَـــم يَبلـــهِ اِرضـــاعها وفطامُهـــا
فتوجســـت رِزَّ الأنـــيس فرَاعهَـــا عَـــن ظَهـــر غَيـــبٍ وَ الأَنِـــيس سُـــقامُهَا
فغَـدَت كَـلا الفَـرجين تُحـب أنـه مَـولَى المَخافـة خَلفهَـا وأَمَامُهـا[1]

فالمشهد يفيض حياة وقوّة وحركة حيث بيَّن الشاعر قمة الإصرار لدى البقرة حين أخذت تنادي وتبحث عن ابنها سبعة أيام بلياليها وتضاعف عنائها عندما أتى الليل فالمطر يهطل غزيرا والبقرة تحاول أن تتقيه بأن تدخل في جوف مكان مرتفع أو في جوف شجرة عالية، اجتمع الألم النفسي والبدني فعظمت المصيبة واستحالت الراحة والليل مظلم جدًّا لدرجة أن الظلام غطى حتى النجوم وأصبحت لا ترى بعد أن استترت بالغمام الكثيف والبقرة تضيء فيه كأنها جمانة مصنوعة من الفضة التي انقطع سلكها فسقطت "فالمشهد يُنديه المطر بواكفه ويمسحه الليل بسواده وتضيئه البقرة بنورها"[2]

ثم يطلع الصبح بعد طول انتظار فأخذت البقرة تجري وقوائمها لا تطيعها لأن التراب كان نديا فينهال ولا يتماسك مما يصعب عليها العدو ثم يصور العراك بينها وبين الرماة الذين أرسلوا عليها كلاب الصيد بعد يأسهم من صيدها قال لبيد:

[1]- المرجع السابق، محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات، ص101

[2]-المرجع نفسه، ص185

حتَــى إذاَ يــئس الُرمــاةُ وأرسَــلوا غُضــفا دَوَاجِــن قَــافلا أَعصَــامُها
فَلحِقــن واعتَكَــرت لَهــا مدَريــة كَالسَّــــــمهرية حَــــــدُهاوَتمامُها
لَتَذودهن وأيقنَت إن لَم تذدِ فتَقصدت أَن قَـد أَحـمّ مِـن الحُتـوف حِمامُهـا
مِنهـا كُسـاب فضَـرجت فَتلـك إذا بِـدم وغُـودر فِـي الَمكـر سِـخامُها
رَقــص اللوَامــعُ بِالضُــحى أَقضِــي واجتَــاب أَردِيــة السَّــراب اِكامُهــا
اللُّبانــــــةلا أُفــــــرط ريبَــــــة أَو أن يَلــوم بِحاجــة لَوامُهَــا[1]

فالشاعر هنا يصف المشهد وصفا ماديا حسيا فالبقرة تجاهد في البحث عن ولدها حتى تيأس، وتحس الخطر فقد أصبحت البقرة في خوف أخر وهي تعلم ما يحدث إن تم العثور عليها فمصيرها كابنها لا محالة فهي مذعورة تتلفت خلفها وتنظر أمامها فهي تحار في تحديد ناحية الخطر من أي اتجاه يأتي فيقتنصها يبين هنا الحالة النفسية للبقرة من عدم الاستقرار والزعزعة الداخلية ففي قمة خوفها يئس الصائد من اللحاق بها فأرسل كلابه التي وصفها بأنها ذات أذان مسترخية مدربة على الاصطياد وجائعة، وهي تعدو حتى تلحق البقرة وحينها أيقنت أن لابد من مواجهة هذه الكلاب وكان سلاحها قرنها الذي شبهه الشاعر بالرمح طولا وحدَّة وقد أيقنت أنّها مقتولة إن لم تجاهد الكلاب فدخلت المعركة حينها التفت البقرة للكلاب لتدافع عن نفسها لأنّ الخطر أصبح قريب فهاجمتها الكلاب وتضاعف الخطر فأنستها البحث عن ولدها وانشغلت بنفسها فاستعانت بقرنها الحاد وقتلت (كساب)، وتركتها مضرجة بدمها، كما تركت (مسحام) قتيلا في مجال الكر[2]؛ فبفضل قوة وعزيمة البقرة تم النصر أخيرا، إذن قصة فقدان الابن من خلال صورة البقرة الوحشية هي دلالة رمزية عبّر من خلالها الشاعر عن أشياء أخرى تواجهه في هذا المكان.

[1]–المرجع السابق، محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات، ص103

[2]– المرجع نفسه، ص186

ثالثا: وصف الصحراء في الليل

إنتناول الشعر الجاهلي بالدراسة والبحث يستلزم ضرورة استحضار الصحراء، لأنها المؤثر الأكبر في حياة الشاعر والحاضنة له فقد امتزج العربي بالصحراء حتى غدت قطعة من نفسه، وجزءا من حياته، فلا يرى لغيرها بديلا، ولا عنهامتحولا، استمد منها تجارب حياته ونمط عيشه وكون من مناظرها وتفاعله معها ثقافته ورؤيته للحياة، عرف نسائمها ورياحها، وعانى قرها وحرها وتقلبات جوها وشارك حيواناتها وطيورها فعاملها بما ينسجم مع طبيعة حياته وطريقته في الاقامة والترحال والبحث عما يقيم أوده ويكفيه رزقه.

اهتم الشعراء بالصحراء أيَّما اهتمام لأهميتها كيف لا وهي الموطن والنشأة والحياة، فصاغوا الأشعار على وحيها وبددوا ظلم الليالي وقسوة الحياة فأتت صورة فنية تحمل عبق الأرض ورائحة الرمال فوصفوا السماء وصوت الرعد ووميض البرق وهدير الرياح، وفي بهيمها عتمة الليل وبريق النجوم وكثير من المفردات التي سكنت امتدادها[1] فمن الأوصاف التي تناولها العرب عامّة و شاعرنا لبيد بن ربيعة خاصة و أوحت أنّه يتكلم عن الصحراء هي وصفه للّيل فيعبر من خلاله عن فرحه وتيهه وخوفه وسكونه لأنّ الليل في الصحراء يحمل كثير من المعاني والدلالات فقد عكس الشاعر ما يدور فيه من جمال ذاك الواقع أحيانا و بؤسه أحيانا أخرى كونه يوفر له المجال الذي يناسب خياله ويوافق تطلعاته.

لقد كان الليل حاويًا لكثير من الحكايات المعبرة والصادقة وقد ضاق بها الشاعر ذرعًا فعرض لنا صورة الصحراء في الليل فوصف الجنّ والغيلان؛ ولها من الظهور في شعر القدماء الحيز الكبير وذلك لارتباطها بالصحراء التي من شأنها أن تكون جوًّا ملائما لمثل هذه فقط في صحراء رحيبة جدباء مليئة بالقيعان والأغوار والوهاد والنجاد والتلال، يقل ساكنوها والجائلون فيها، ويسدل الليل الستائر فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء فتتسلط الأوهام وتتجسّد المخاوف والأحلام فيدعي كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها وقد خصصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان

[1]– ينظر، المرجع السابق، محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات.

والسعالى وأطلقوا الغول على كل شيء من الجن يعرض السفار[1]؛ والكثير منالأمور فيستفيض الشاعر في تصوير الصحراء في هذا الليل الدامس ثم يتجه إلى تصوير ما يرتبط به فيقول:

غُـرب المّصـبةِ مَحمـود مَصـارِعُه لاَهـي النّهـار لسـيرِ الليـلِ محَتقـرُ
يَـروي قَـوامِح قَبـل الليـل صَـادِقة أشَـبَاه جِـن عَليهـا الَّـربط والأزرُ
إن يَتلفوا يُخلفوا فِي كُل مِنقصة مَا أتلفـوا، لابِتغـاء الحمـدُ، أَو عَقـروا[2]

في هذا الشاهد وقف لبيد عند وصفه لربوع الصحراء وظلمة لياليهاواستمدّ في ذلك صورًا شتّى للجن حيث شبّه النوق السائرة في الليل التي ترفع أعناقها وتهز رؤوسها بالجن التي تمد أعناقها في بيداء كلها وهاد ونجاد وظنّا منه بأنّها تشاركه في كل مكان لذا فهو اعتاد عليها واحتمى به.

ومن المعروف أن الليل طويل وهذا الطول يكون مقترنًا بالسمر والسهر في جوف الصحراء ومجانبة النوم فاستعان الشاعر بهذا المعنى ليصوّر همومه وشعوره بالحزن وفي ذلك يقول لبيد:

واضـبِطِ الليـلَ إذا طـالَ السُّـرَى وَتَـدجّى بَعـد فَـورِ واعتِـدَال
يُرهِـبُ العَـاجِز مِـن لُجّتهِطَـالَ قـرنُ فَيُـدعِّي فِـي مَبِيـت ومَحّـل فَـإذا مَـا
الشّـمسِ لمَّـا طلَعـت حَضـر الليـلُ اضـمَحل[3]

هنا يصف الشاعر الصحراء بأنها فور أي مظلمة في أول الليل وليلها ثقيل ومتباطئ طويل لا يمضي بخفّة كما أضفى عليه ألوانًا من الحزن توحي بالهموم وكأنّ الليل هو المؤرق ومسبب السهر، فما يحمله من هم هو ما جعله يشعر بطول الليل واعتكاره، وكان سواد الليل هو سبيله إلى تصوير مشاعره، يقول أيضا:

---

[1] –ينظر، أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ط2،دت،ص370، ص371

[2] –الديوان، ص136

[3] –المصدر نفسه، ص125

قَــالَ هَــدجنَا فقَــد طَــال السَّــرى وَقــدرنَا إن خَنَــى دَهــر غَفَــل
يَتقِـــي الأرضَ بِـــدفِ شَاسِـــفِ وضُـلُوعٍ تَحـتَ صُـلب قَـد نَحَـل[1]

في هذا الشاهد يصف لبيد لياليه التي يقضيها في الصحراء بأنّها شديدة الأرق بقوله هدجنا أي دعنا وخلنا ننام ونستريح فقد طال السير في ربوع الصحراءالواسعة ويتقي الأرض الجنب ويتجافى عنها ويتفنن في وصف همّه والمصائب التي تُلمُّ به فالليل يتجاوز عنده وقته المعهود عليه أيْ زمنه الحقيقي؛ حيث نجد أن لبيد شاعر مرتبط بأرضه ومتعلق الوجدان بها وهذا ما جعله يشعر بثقل وطأة الرحيل، وهو مع ذلك مضطر إلى شد الرحال بين حين وآخر ولقد كان السير في البيداء في ثنايا الليل يعدُّ بمثابة الغوص في أعماق النفس الإنسانية يقول لبيد في ذلك متحديا مجاهل الصحراء في ذلك الليل الدامس:

ولَقَــد قَــط تَوصِـــيلة مَجـــرُودة يَبكـي الصَّـدى فِيهـا لِشُـجُوِ الْبـوم
بَخَطِيــرة تُــوفي الجَــدِيل سَــرِيحة مِثــل الَمسُــوف هَنأتــهُ بِعصَــيم
أَجِـــد المَرافِـــق حُـــرة عِيرانَـــة حَـرجَ كَجفـنِ السَّـيف غيـر سِـؤُوم
تَعــدو إذا قَلقــت عَلَــى مُنتصــب كالسُّــحلِ فِــي عَادِيــة دِيُمــوم[2]

وقال أيضا:

لَو كَان غَيرِي، سلِيمى، الَيوم غَيرهُ وَقَع الحوادثِ، إلا الصّارِم الَذكرُ
مَايمنعُ الليلَ مِني مَا هَممتُ بِه وَلاَ أَحارُ إذَا مَا اعتَادنِي السفَرُ
إنِي قَاسِي خُطُوبا مَايقُوم لَهَا إلا الكِرامُ علَى أمثَالُهَا الصبرُ [3]

[1]– الديوان، ص 71

[2]–المصدر نفسه، ص192،191

[3]–الديوان، ص57

فنجد هنا أنَّ لبيد يصف الصحراء في ليلة موحشة، وقد ألجأته رحلته الطويلة أن يبقى فيها مدة، أوقد فيها ناره وظل فيها وحيدًا وكانت الريح تعصف من مكان إلى مكان لا تكاد تقف وعلى الرغم من وحشة الصحراء في ليل دامس في هذه الطبيعة القاسية نجد أنَّ الشاعر استأنس بالناقة وصداقتها في هذه المجاهل المظلمة إذ كانت هذه الأخيرة تبعث في نفسه الرهبة والكآبة والشعور بالوحدة.

ولامتداد الصحراء وتفرق الديار والمنازل فيها تبعا لأماكن الخصب والماء يجعل الليل ساكن ودافئ وهادئ فالصحراء في الليل دليل للبدو لظهور النجوم والكواكب فهي الهادية لهم في الطريق للصحراء وتجوالهم المستمر فيها ومعرفتهم بأيامها ونزول الغيث فيها،وهنا يناجيها الشاعر قائلا:

بُلِينَا وَمَا تُبلَى النُجوم الطَوالِع وَتَبقَى الجِبَالُ بَعدَنَا والمَصَانِع [1]

وقال أيضا:

وعَانَ فَكَّكت الكِبلُ عَنه، وَسَدفَةً سَربتِ، وأصحابِي هّديت بِكَوكبِ
شَرِبت بِهم حَتى تَغِيب نَجمُهم وَقَال النَّعوسُ: نُور الصُّبح فَاذهب[2]

فهو يقف عند وصفه لها في الليل بأنّه منبهر بجمال النجوم فيها وبأنّها أصبحت هي محبوبته فوصف ارتفاعها في قبة السماء وثبوتها فهي ثابتة مترزنّة عديمة الحركة.

الوصف عنده كان عدته في تصوير وتقريب ما حوله فكانت عينه تجول فيما حوله من الطبيعة المفتوحة الأرجاء من أرض وسماء وتلال ومرتفعات وبادية ومفاوز مترامية وقد أبرز فيها جانبا من التتبع والتعبير فصوّر الصحراء ورسم صورة حية للحياة الجاهلية وكان لها الأثر الواضح في رونق القصيدة.

[1]–الديوان،ص88

[2]–المصدر نفسه،ص28

رابعا: طلوع الفجر وتحقيق النصر

إذا كان العربي قد عاش في بيئة جدباء قليلة الزرع نادرة المطر شحيحة الخير عامة، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى وأكثره إمتاعًا، ذلك هو الحرية و الإباء، قست عليه الطبيعة فحرمته كثيرا من الوسائل المادية التي يترفه بها المتحضرون، ولكنه استمتع بأحسن ممَّا يستمتعون فعاش في الصحراء قويّ القلب منتصرا مستمتعًا بهزيمة الأعداء وإهلاكهم، فلا شك أن النصر مما يفتق الأذهان، ويحرك المشاعر ويثير الأحاسيس، فهو يلهم الشاعر أعذب المعاني فينطلق لسانه مصوّرا ما يجيش بصدره من عواطف وانفعالات، فيتغنى بذلك النصر، ويرسله مع النسيم عطرا شذيا، يخبر الأقارب والأباعد، ويسجل على صفحات التاريخ ما ناله القوم من مجد، يسرُّ القلوب ويقرَّ العيون[1]،فشعرنا العربي القديم شعر معارك وأيام وكانت الغارة معلما واضحا من معالم الحياة الجاهلية وكانت الحروب بين القبائل لا تكاد تهدأ، يحل موسم المغازي قبيل فصل الصيف، حينما تبدأ القبائل تتجمع وتقطن على أبارها في أماكن متباعدة تفصلها مساحات شاسعة من الرمال والحقول الجرداء فيصبح التنقل بين هذه المقاطين صعبا لا يستطيعه إلا من يملك راحلة وزاد وماء، وكان لمكان هذه الغارات أثر مهم في الشعر الجاهليفقد امتزج الشاعر بالمواضع والأماكن التي ضمت تلك المعارك ذلك لان هذه الحروب إنما تجري في أماكن معينة والحديث عنها لا يتم دون تحقيقها بذكر مواقعها من جبل أو صحراء لاسيما أنها كثير ما تقع بسبب الاختلاف على ماء أومرعىومن ثم كان النصر فرصة ثمينة للشاعر لتظهر فيه مواهبه، وتتجلى براعته الفنية وذكر لبيد انتصار بني عامر على قبائل جعفي بن سعد فيقول:

[1]– الدكتور علي الجندي: شعر الحرب في الشعر الجاهلي، دار مكتبة العربية، بيروت، لبنان، ص 224

شَفَى النَّفسَ مَا خَبرت مِرَان أُزهقَت وَمَا لَقِيت يَوم النَّخِيل حريمِ
قَبائِل جَعفِي بن سَعد كَأنمَا سَقَى جَمعُهم مَاءَ الزُّعَاف منيمِ
تَلاقَتهم من آلِ كَعب عِصابة لَهَا مَأقط يَوم الحِفاظِ كَرِيمِ
فَتكلمُ بِتلكُم، غَير فَخرِ عَليكُم وَبيت عَلى الأَفلاجِ ثُم مُقيمِ [1]

فيصور الشاعر"المأقط" وهو موضع المعركة التي وقعت بين قبيلة بني عامر وقبيلة جعفي بني سعد في يوم النخيل وبيّن كيف أوقعت بني عامر بعدوّها مفاخرا بذلك النصر ففي الفخر بتحقيق النصر كان الشاعر يحاول أن يفخم هذا النصر، ويجعله نصرا عظيما بكل ما وسعه من جهد فيصور قوة الحرب وبأنَّها كانت على أشد ما يكون والعدو كان كثير العدد فالهدف من خلال هذا التعبير أن يعطي صورة لبني عامر بأنهم كانوا أقوى وأشد بأسا من الأعداء، إذ لو لم يكونوا كذلك لم يكن النصر حليفهم.إن الصورة الرئيسية التي تنشط عند الشاعر في حالة النصر الفخر بهذا النصر الذي حققه وسعى إليه، ولا شك أن نشوة النصر وما تحدثه من زهو تسيطر على كيانه وانفعالاته النفسية، حيث يظهر بدور الإعلامي الكبير الذي يحاول أن يشيع هذا النصر الذي حققته قبيلته بين القبائل.

ومن الطبيعي في الجاهلية أن يتبع كل معركة ثأرا، وكل ثأر يولد معركة جديدة فلولا الثأر لما استرجع المهزوم مكانه من النصر بعد الهزيمة ومن شدة كلف الثأر تراهم يمتنعون عن شرب الخمر بل وحتى أخذ الدية إلى أن ينتصروا بأخذ ثأر القتيل[2]ينقل لنا لبيد نصرهم بأخذ ثأر منيع مرة بن طريف يقول:

[1]–االديوان،ص183

[2]–ينظر، المرجع السابق، الدكتور علي الجندي، شعر الحرب في الشعر الجاهلي، ص178

أَنفنَـــا أَن تَحُـــل بِـــه صُـــداء وَنَهـــد بَعـــدما انسَـــلخَ الحـــرامُ
وَلـــو أَدركـــنَّ حَـــي بَنِـــي جَـــرِي وتِـــيم الـــلّاَت نَفـــرتِ البِهـــامُ
بِكـــل طَمـــرةٍ وَأقـــب نَهـــدِ يَفـــلُ غُـــروب قَارحَـــة اللِّجّـــام
وَكـــل ذَابِـــل الطَرفَـــاء عَنهَـــا بِجنـــبِ سُـــويقَة الـــنَّعمِ الرُّكـــامُ[1]

يروي بقوله أدركن يعني الخيل والبهام وهذا كناية عن فزع وهرب العدو نلتمس في هذه الأبيات إظهار الشاعر صورا شتى في ذكره كيف خرج قومه بأبطال أقوياء أشداء، لمفاجأة المغيرين المعتدين، ومالحقهم من أذى في نهاية المعركة ويعبر عن شعوره العميق بالفرح والابتهاج لما ناله قومه من نصر.

كما ذكر الدرع في شعره وبين أنه عدة ضرورية من أدوات الحرب لتحقيق المجد والنصر فقال:

فَخمَـــة ذَفـــرَاء تَرتِـــى بِـــالعُرى قُردَمانِيـــا وتَركَـــا كالبَصـــل
أَحكمُ الجِني مِن عَورَاتِهَا كُل حرباء إذا أُكرِه صلِ

في هذا الشاهد يصف لبيد الدرع مفتخرا بامتلاك به ومعتبرًا إيّاه خير الأسلحة التي تحميه في ساحة المعركة الشاسعة؛ وبأنَّه يتميز بعدة صفات كالجودة والصلابة فقوته ترد النبال ولا تنفذ السهام ولا تؤثر فيها النصال وكان هو وقومه يضعونها في صناديق للمحافظة عليها، فإذا ما أزعموا القيام بغارة أو حرب وضعوها في حقائب ثم حملتها الإبل ضمن المتاع والذخيرة إلى أن يقتربوا من مكان العدو فهي الكفيلة لهم بالحماية والنصر.

في الأخير أقول إن الفضاء الصحراوي مجموعة عوالم متداخلة وقد أتقن الشاعر بمهارة فائقة لعبة تحريك هذه العوالم وإثارة روحها في نصه الشعري فكل شيء في الصحراء علامة مختزنة بكم هائل من المعاني خلق كلمات بسيطة بساطة المكان الجغرافي لكنها عميقة في دلالتها عمق المكان الصحراوي والبيئة هي المحيط الذي تدخل تحته تلك المعاني والألفاظ والكلمات والإيحاءات فتتطبع وتخرج معبرة عنه،

[1]–الديوان، ص194

وتكمن جمالية هذا الفضاء في اعتناء الشاعر برسم أبعاد المشهد أو الفضاء الجغرافي وتأثيثه بعناصر نباتيه وحيوانية وإنسانية فالطلل وخطر الصحراء والبقر الوحشي وتحقيق النصر كل هذه اللوحات الفنية توحي بمعان كثيرة وخفية أشار إليها الشاعر.

الخاتمة

الخاتمة:

في الأخير وبعد دراستنا للفضاء الجغرافي في شعر لبيد بن ربيعة المعلقة نموذجا توصلنا إلى جملة من النتائج أهمها:

- تتفق جميع الدراسات على أن مصطلح الفضاء يحمل دلالة الاتساع وله من الصفات السعة والاستواء والفراغ وعموما يمكن القول إن الفضاء هو ما اتسع من المكان.
- تعددت أنماط الفضاء، وتعددت أنواعه ودلالاته في متن الخطاب الشعري الجاهلي فكان الفضاء الجغرافي بأصنافه المغلق، المفتوح، المقدس، والفضاء النصي بجزئياته والفضاء الدلالي.
- غياب الاستقرار العلمي لمصطلح الفضاء حيث تعالق وتداخل مع مصطلح المكان وهذا نتيجة إقبال الباحثين على توظيفهما معا مما أدى إلى الانجرار في استخدام مصطلحي المكان والفضاء معا.
- أخذ الفضاء الجغرافي من بين أنواع الفضاء حصة الأسد، حيث تناوله الشاعر الجاهلي بأبعاد شتى، نفسية، واجتماعية، وتاريخية وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على الارتقاء بالفضاء الجغرافي (المكان) من مجرد حيز جغرافي ضيق إلى حيز لغوي، ينبض بالحركة والحيوية.
- تفاعل الشاعر لبيد بن ربيعة مع المكان تفاعلا إنسانيا فحمَّله همه ورؤيته وثقافته فالشاعر يبعث الحياة والأمل فيه ويشكله كما يرغب بعد التجربة المعيشية كما يحتمي بهذا الفضاء عند الشعور بالوحدة والغربة ليعيد لنفسه توازنها.
- ارتبط الفضاء الجغرافي عند لبيد بن ربيعة بالحالة الوجدانية من خلال ظاهرة الطلل ليعبر عن مدى تعلقه بالمكان وهذا ما عكسه الشاعر في نصه الشعري.
- شعر لبيد العامري خارطة رسم عليها مجموعة من الأماكن كان الطلل فيه عنصرا جوهريا وذلك لما له من علاقة بالمرأة التي بحضورها تبث الحياة والخصب في المكان، وبغيابها ومغادرتها يضحى المكان قفرا.
- لجأ الشاعر إلىأنسنة المكان، وهي خاصية نابعة عن غياب وفقدان الاتصال بالأهل فهو اختار هذا الاتجاه رغبة منه في الاستئناس به، كما أنها تعد طريقة في إحياء كل ما غاب عنه من حركة.

الخـــاتمة

- يرتقي المكان بعد الهدم إلى موضع قابل لإعادة التشكيل، فإذا كان الطلل مدخلا للخراب، الذي أتى على كل شيء، فالشاعر لا يتقبل ما طفا على ذلك السطح من تغيرات، الأمر الذي يدفعه إلى خوض تجربة شعرية أساسها خلق فضاء يشق من خلاله مواطن الدمار والفناء.
- جاءت الطبيعة في شعر لبيد بن ربيعة منهلا خصبا لتشكيل الصورة الشعرية، ذلك لما تحمله من مفردات ودلالات، وما توحي به من إيحاءات، وما ينبثق عنها من صور تتعلق بالحيوانات فقد تفوق في وصفه لها بذكره للتفاصيل الدقيقة وعرضه للحالة المعنوية لتلك الحيوانات.
- فكرة المطر في الوقفة الطللية هي ما شغلت عقل الشاعر عندما يتذكرالأماكن فيحاكيها ويدعولها بالسقيا طمعا في الخروج من دائرة الجدب والولوج إلى دائرة الخصب.
- شكل حضور الصحراء في التجربة الشعرية حضورا واقعيا وفنيا بكل عناصرها وظواهرهاوطبيعتها المتنوعة وارتبط الشاعر بها من جوانب متعددة، حيث وقف متأملا تلك الطبيعةفوصفها مبرزا أخطارها.
- أتت الطبيعة الصامتة والمتحركة من حيوان وشجر ورعد وبرق تتحدث بلسان الشاعر علىالأثر المباشر والتناغم الحركي تحت قبة الصحراء.
- أوضح وأبان في الحديث عن بقرته وقصة فقدانها لابنها الذي أكلته السباع، وكيف ظلت تبحثعنه وسط الفضاء الصحراوي الواسع في ناحية وصفها بأنها منطقة صلبة بين رملتين.
- ولدت قساوة فضاء الصحراء الذي لا حدود له لدى الشاعر حب البقاء والاستعداد الدائم لمواجهةالنوائب والمخاطر.
- حملت الصحراء الإصرار والعزيمة والنصر التي اتسم بها الشاعر وهي صفات مكتسبة من البيئةالمحيطة به لخلق نوع من التوازن الروحي والمعنوي مع متطلبات الحياة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الله أن يسر لي انجاز هذا البحث، فإن أصبتفذلك من توفيق الله وفضله، وان ن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان وأسأل الله السداد.

الملحق

ملحق:

السيرة الذاتية للشاعر لبيد بين ربيعة العامري:

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري بن قيس بن عيلان بن مضر، يكنى أبا عقيل، ويكاد يكون تاريخ مولده مجهولا ولو أخذنا بأخبار الأغاني بأنه مات في أخر أيام معاوية بت أبي سفيان وكان عمره مئة وخمسة وأربعين عاما (145) لعلمنا أنه ربما يكون قد ولد سنه (534) تقريب ومهما يكن فان لبيدا كان من المعمرين، فعمره لم ينقص من مئة وعشر سنوات (110) في ما ورد من أخبار .يكنى أبا عقيل، وكان يقال لأبيه ربيعة المقترين لجوده، أما أمه فهي تامرة بنت زنباعالعبسية إحدى بنات جذيمة بن رواحة[1]

قدم إلى النبي مع وفد من قومه فأسلم وحسن إسلامه وهو أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرمين ومن أشراف المجيدين الفرسان المعمرين، فمن مواقف لبيد الأولى مشاركته لقومه بني جعفر في الارتحال عن ديارهم قاصدين أرض نجران لان جواب بن عوف زعيم أبي بكر بن كلاب حكم عليهم بالنفي وفي هذه الحادثة تهكم وسخر لبيد من حكمه قضى لبيد فترة النفي مع أعمامه في الديار اليمنية وفي المنفى اتصل ببعض الأمراء اليمنيين والأحباش، ومنذ ذلك الوقت بدأ نجمه يلمع على لسان قومه فقد توسط عند الأمير الحبشي في رد ابل إلى صاحبها فاستجاب الأمير إلى سؤاله، وكتب له بذلك كتابا ولم يشأ لبيد أن يخرج عن مبادئ الوئام والوفاق التي سادت من جديد بين قبيلته وبين قبيلة بني أبي بكر وزعيمها جواب وهكذا اخذ نجم لبيد في الصعود ولما شكل أهله وفدا للتسليم على نعمان وتهنئته بالملك، كان لبيد معهم إلا أن الربيع بن زياد وهو خال لبيد، كان يحقد على بني جعفر لذلك أخذ يصد الملك عنهم وينصحهم بعدم استقبالهم والاحتفاء بهم وغاية القول أن لبيدا انتصر لأعمامه.

[1]– أبي عبد الله الحسين بن احمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، لجنة التحقيق في الدار العالمية، دط، بيروت، 1992، ص85

كان لبيد دائما يقف موقف المفاخرة أمام الملك في وفداته المتكررة عليه وقد عززت هذه المواقف من تجربته وعمقت شخصيته وشهرت اسمه كشاعر في الأفاق إلى جانب ذلك كان من أجود العرب، وقد إلى في الجاهلية إلا تهب صبا إلا أطعم مما جعل الولاة يستنجدون به في الملمات. وفي الإسلام كان لبيد من القوم الذين حسن إسلامهم، ويظهر أن الإسلام، كان عميقا في نفسه ويقال بأنه لم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدا من يشكر فيه ربه الذي أنعم عليه بنعمة الهداية والرشاد قال:

الحَمدُ لِلهِ الذِي لَم يَأتِنِي أَجَلِي حَتَى لَبستُ مِن الإِسلاَمِ سِربِالاَ

وغاية القول إن لبيد أسلم وأتى المدينة فأقام فترة فيها ثم هاجر إلى الكوفة لعهد عمر بن الخطاب وقضى فيها بقية حياته مقبلا على القران الكريم يحفظ ويتأمل أبعاده ومراميه، كان لبيد من أشراف المجيدين المقدمين عذب المنطق رقيق حواشي الكلام له ديوان ينطوي على كثير من أغراض الشعر وفنونه وأشهر ما فيه المعلقة وهذه المعلقة تعتبر الرابعة بين أخواتها ولم ينظمها لأمر أو حادثة وإنما نظمها بدافع نفسي.

ولما حظرته الوفاة قال لان أخيه–لم يكن له ولد ذكر–يا بني إنأباك لم يمت ولكنه فني، فإذا قبض أبوك فأقبله القبلة وسجه بثوبه، ولا تصرخن عليه صارخة ونظر حفنتي التي كنت اصنعهما فاصنعهما ثم احملها إلى المسجد فإذا لم الإمام فقدمهما إليه فإذا طعموا فقل لهم فليحضروا جنازة أخيهم وهكذا نرى أن لبيدا قد عمر كثيرا[1]

[1]– ينظر، أبي عبد الله الحسين بن احمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، المرجع السابق، ص86.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1. الكتب:

1- القرآن الكريم

2- ابن منظور محمد بن مكرم بن عمي أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعي، لسان العرب، المجلد 15، بيروت، 1997م.

3- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م.

4- أبو الحسين أحمد، معجم المقاييس في اللغة، تحقيق شهاب، دار الفكر، بيروت، دت. الفيروز أبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح محمد نعيم العرقشوشي، مؤسسة الرسالة، دمشق، 2005م.

5- أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، شرح المعلقات العشر، مطبعة السعادة، مصر، 1964م.

6- أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، لجنة التحقيق في الدار العلمية، دط، بيروت، 1992م.

7- أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها،ط2، مصر، دت.

8- إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة، ط2، 1982م.

9- أنور أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، ط1، دار عمان، الأردن، 1987م.

10- جريدي سليم المنصوري، شاعرية المكان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، دط، 1992م محمد مصطفى علي حسانين، استعادة المكان(دراسة في آليات السرد والتأويل)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2002م.

11- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي(الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 1999م.

12- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م.

13- الدكتور علي الجندي: شعر الحرب في الشعر الجاهلي، دار مكتبة العربية، بيروت، لبنان.

14- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تح احسان عباس، سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.

15- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، مكتبة محمد سعيد الحميد، دار صادر، بيروت.

16- زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، لبنان، 2000م.

17- سعد العبد الله الصويان: الصحراء العربية (ثقافتها وشعرها عبر العصور قراءة أنثروبولوجية)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، لبنان،2010.

18- سلمان كاصد، عامل النص السردي، دراسة في الاساليب السردية، دار الكندي، بيروت، 2003م.

19- سمر روحي الفيصل، الرواية العربية(البناءوالرؤي: مقاربات نقدية)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003م.

20- سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار التنوير، بيروت، ط1، 1985م.

21- شربيط أحمد شربيط، الفضاء (المصطلح والاشكاليات الجمالية)، الشركة العالمية للطباعة، تونس، 1994م.

22- شريف حبيلة، مكونات الخطاب السردي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2011م.

23- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ط11، القاهرة، 1119م.

24- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.

25- عزة حسن، شعر الوقوف على الاطلال، مطبعة الترقي، دمشق، 1968م.

26- عطوان حسين، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، 1970م.

27- غاستونباشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هالسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1984م.

28- غراهام كلارك، الفضاء والزمن والإنسان، ترجمة عدنان حشن، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2004م.

29- كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، دت.

30- مجد الدولة الأمير أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، المنازل والديار، الجزء2، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1965م.

31- محمد صبري الأشتر، العصر الجاهلي الأدب والنصوص والمعلقات، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، 1994م.

32- محمود الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م.

33- مصطفى السيوفي، الإبداع الشعري بين النظري والتطبيقي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، ط1، 2011م.

34- نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، الشركة المتحدة للتوزيع،ط1، بيروت،1970م.

2. المجلات:

1- عبد الله الرازقي، انعكاس الطبيعة الصحراوية على حياة الانسان الجاهلي من الناحية الاجتماعية، مجلة العلوم الانسانية والطبيعية، المجلد 01، العدد04، 2020.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

فهرس الموضوعات	الصفحة
الإهداء	/
المقدمة	-أ-
مدخل: الفضاء في الشعر	
تمهيد	**05**
أولا: مفهوم الفضاء	**05**
1-من الجانب اللغوي	**05**
2-من الجانب الاصطلاحي	**06**
ثانيا: مستويات الفضاء	**08**
1-الفضاء الجغرافي	**08**
2-الفضاء النصي	**08**
3-الفضاء الدلالي	**09**
ثالثا: التعالق في الفضاء	**11**
الفصل الأول: الفضاء في المقطع الطللي	
أولا: الارتباط بالمكان	**16**
ثانيا: القفر والزوال من خلال الطلل	**22**
ثالثا: وصف الحيوانات والدلالات	**28**
رابعا: الدعاء للطلل بالسقيا	**34**
الفصل الثاني: الفضاء من خلال الرحلة الصحراوية	

أولا: خطر الصحراء	**40**
ثانيا: فقدان الابن من خلال صورة البقرة الوحشية	**45**
ثالثا: وصف الصحراء في الليل	**49**
رابعا: طلوع الفجر وتحقيق النصر	**53**
الخاتمة	**58**
ملحق	**61**
قائمة المصادر والمراجع	**64**
فهرس الموضوعات	**68**
الملخص	/

الملخص:

يسعى البحث الموسوم بـ: "**الفضاء الجغرافي في شعر لبيد بن ربيعة المعلقة أنموذجا**" إلىدراسة حدود المكانوعلاقته بالشاعر، وما يتركه من آثار اجتماعية ونفسية، وفنية تسهم في تحريك شاعريته، فالفضاء الجغرافي ليس مجرد مساحة، أو قطعة أرض لا تعني شيئا للشاعر. بل هو جزء لا يتجزأ من حياته. لذا كان حضوره قويا في شعر لبيد بن ربيعة.

وأصبح وسيلة يقدم من خلالها الشاعر نظرته وتصوراته وتناولت من خلال هذه الدراسة الفضاء في المقطع الطللي والتطرق الى بعض دلالاته كما عرجت على الفضاء من خلال الرحلة الصحراوية ثم خاتمة ضمت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.

Abstract :

The research, tagged "The Geographical Space in the Poetry of LapidIbnRabia as a model", seeks to study the boundaries of the place and its relationship with the poet, and the social, psychological, and artistic implications that contribute to the movement of its poeticity, geographical space is not just space, or a piece of land that means nothing to the poet. It is an integral part of his life. So his presence was strong in the poetry of Lapid Ben Rabia.

It became a means through which the poet presents his vision and perceptions and through this study addressed the space in the talistic section and addressed some of its connotations as it limped into space through the desert flight and then concluded included the most important findings reached through this study.